

RE

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



PT 25 - 10% Khanye 12/2/45

Bund 12

طه حسين

(C)

24

الطيب

ALBULLOQ
YTIQEVIBU
YRABLI

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

893.7H954
035

45-39141

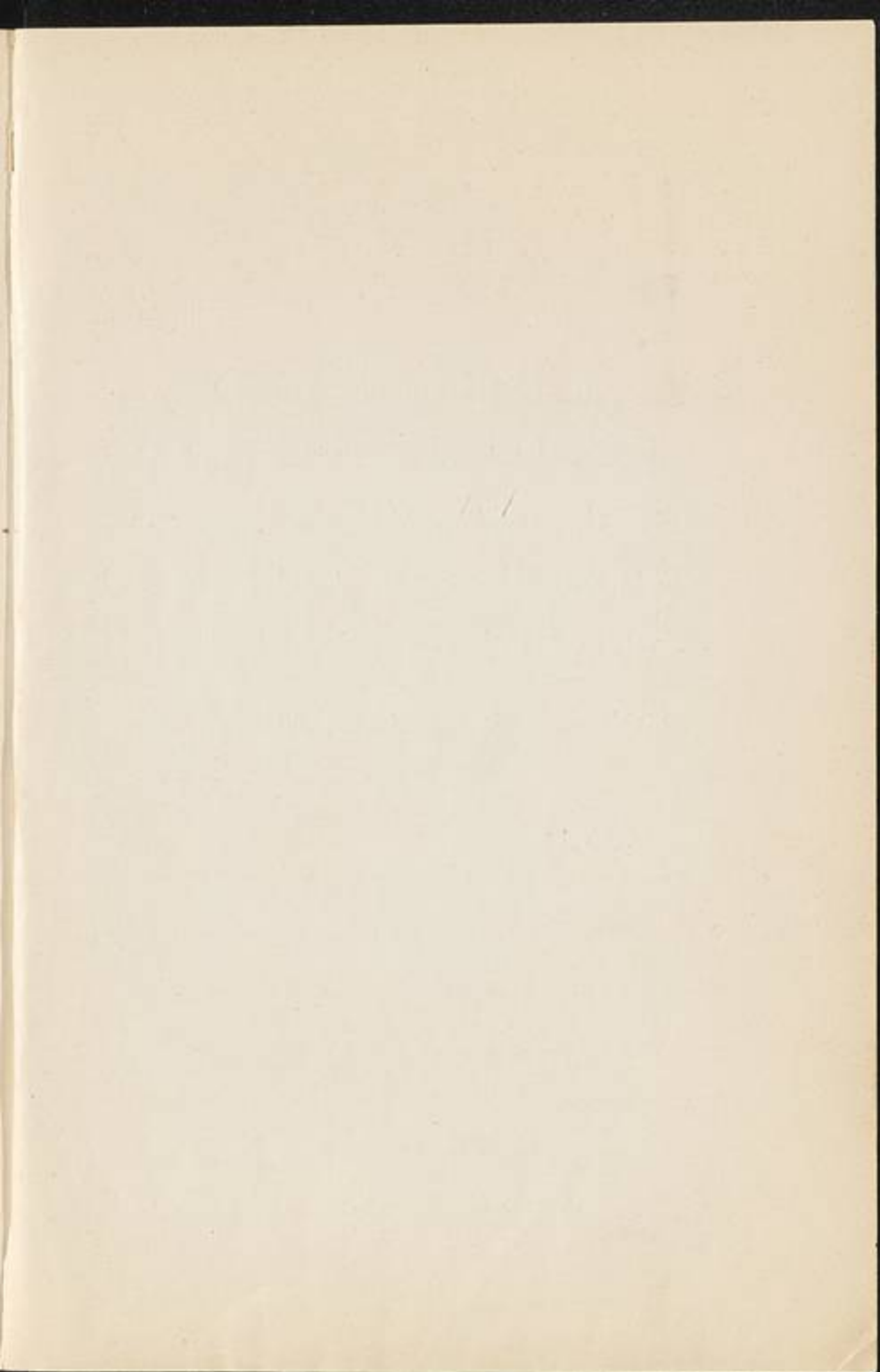
COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

45-30141 February 21, 1942 FM/MLT

أخي العزيز

وددت لو أسمىك ولكنك تعلم لماذا لا أسمىك وحسب
 الذين ينظرون في هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول
 المعززين لي حين أخرجني الجور من الجامعة وأول المهنتيين
 لي حين ردني العدل إليها . وكنت بين ذلك أصدق الناس
 لي ودًا في السر والجهر وأحسنهم عندي بلاء في الشدة واللين .
 فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لإخائك
 الصادق الخالص ..

طه حسين



زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس . فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ولا يشعر بشيء إلا أعلنه وهو إذا نظر في كتاب أو خرج للتروض ، أو تحدث إلى الناس فأثار شيء من هذا في نفسه خاطراً من الخواطر ، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف أو حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي ، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس .

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه ، وإنما يحس للناس ، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضلها أقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير . وإنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي أنتجته طبيعته الدقيقة الخصبه الغنية ، فإذا كان متواضعاً ، معتدلاً الرأي في نفسه فهو شقي تعس محزون ، يجب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه .

ور بما لم ير في نفسه إيشاراً ، ولم يحس أنه شقي وإنما آثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلاً أو كثيراً فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية ، وكثيراً ما تعرض له الفرص التي تحملها على أن يستعرض حياته الماضية ، والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردى الخاص ليعود إليه كما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها ؟ وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع ، ويعلمها بهذه الألوان من التعلات . وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب ، لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب ، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجرى به القلم كما أنه حين يأكل ويشرب ويدخن قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ . إنما هي حاجة تضطره إلى الحركة ، فيتحرك وتدفعه إلى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الأيام حين تصبح أمراً مقضياً لا منصرف عنه ولا سبيل إلى التخلص منه .

إذا كان هذا كله صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث إليك عنه أديباً . فليست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلاً أضنته علة الأدب ، واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئاً ، ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً إلا فكر في الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس ، وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في إخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيراً ما كان يقول لأصحابه إذا رأى شيئاً أسخطه أو أراضاه : ما أخلق هذا الشيء أن ينشئ صورة أدبية ممتعة للسخط أو الرضاء ! وكان يقضى نهاره في السعي والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا إلى نفسه ، أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط الحروف أمام عينيه الزائعتين ، ويأخذه دوار فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوى إلى مضجعه ليستريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً ، وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ، وخطباً ومحاضرات . ينمو هذه ويدبج تلك ، كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها . وكثيراً ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من

هذه الفصول والمقالات التي كانت تملئها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعاً وكثيراً ما كان يقرأ عليهم فصولاً من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته ، وسجلتها يده حين كان يخلو إلى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء وبما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان أصدقائه إذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألخوا عليه في أن يذيع ذلك وينشره ، فيبتسم ثم يهزأ ، ثم يمتنع عليهم ويلح في الامتناع ، لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد إلى أن يكون خليقاً بأن يقدم إلى المطبعة ، فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن ما يقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان ، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعاً .

وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى ولا قربان يختار . وأنه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه ، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله . فما زالت الآماد بينه وبين المطبعة بعيدة . وما زالت الأستار والسجف دونه مسدلة .

فليكتب إذاً لنفسه لا للمطبعة ، فإذا ضاق بنفسه وبما تملئ فليظهر

أصدقاءه على شيء منه وليرض هذه الحاجة القوية التي نحسها جميعاً إلى أن نشرك الناس فيما نجد من حس أو شعور . والحق أن صاحبي لم يكن يقدم على هذا إلا كارهاً مضطراً حين لا يجد بداً من الإقدام . أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم . وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض جسمه عارياً على الناس . ولكن أصدقاءه لم يكونوا في حاجة إلى أن يروا شخصه عارياً . وكانت حاجتهم شديدة إلى أن يروا نفسه كما هي ، لأنها كانت جميلة خلاصة تروعهم حيناً . وتثير في نفوسهم الحب والمودة دائماً .

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه ، وكان إلى القصر أقرب منه إلى الطول . وكان على قصره عريضاً ضخماً الأطراف مرتبها كما تماماً سوى على عجل ، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص ، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد . وكان وجهه جهماً غليظاً يخيل إلى من رآه أن في خديه ورمماً فاحشاً ، وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة ، منبطح غال في الانبطاح ، قد اتصل بجمجمة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم .

لم تكن قد تقدمت به السن ، بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد . كان على قصره مقوس الظهر إذا قام ، منحنيماً إذا جلس ، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة ، وإسرافه في الانحناء على الكتاب أو القرطاس ها اللذان شوها

قده هذا التشويه . وقلما كان وجهه يستقيم أمامه ، إنما كان منحرف العنق دائماً إلى اليمين أو إلى الشمال ، وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة ، إنما كانتا مضطربتين دائماً لا تكادان تستقران على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء ، أو تنحرفا عنه إلى ما يليه من إحدى نواحيه .

ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا ، وإنما كان غليظا نجما ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه إذا قرأ شيئا فيه تأثير وانفعال . وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً مخيفاً ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل . وكثيراً ما ضايقه ذلك حين كان في باريس . وكثيراً ما حمل ذلك الناس عامة ، وأصدقاؤه خاصة ، على أن يضيقوا به ويحتنبوه إذا لقوه في قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل .

وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس إليّ ، وأكرمهم عليّ ، وآثرهم عندي ، وأحسنهم مسلكا إلى نفسي ، ومنزلا من قلبي . كان يزورني فأنصرف إليه عن كل شيء وأقضى معه الساعات ، فاذا تركني خيل إليّ أني لم أقض معه إلا اللحظات القصار . وكنت إذا أعياني الدرس واحتجت إلى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم إليّ القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ، ثم أدركته في باريس بعد أن سبقني إليها . عرفته مصادفة وكرهته كرهاً شديدا حين لقيته لأول مرة ، كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها ، وكنت أختلف إلى ما كان يلقي فيها من المحاضرات ، حريصاً عليها مشغولاً بها معتزماً أن لا أضيع حرفاً مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي لهذا دائماً قريباً من الأستاذ . فإني لمصغ ذات ليلة إلى الأستاذ وإذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئاً ، ولكنه على هدوئه يغمز أذني جميعاً ، ويكاد يخفي على صوت الأستاذ فأجد في التخلص منه فلا أفلح ، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباي اللذان يكتنفاني .

فالتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت إلا ريثما يستأنف الحديث ، وتراجعه مرة أخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه إلى الأستاذ فيضطره الأستاذ إلى الصمت . حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا في غلظة ، فإذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه ، قهقهة قهقهة مخيفة ، وقال في صوت ما نشك أن الأستاذ قد سمعه : « وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر ، فكل شيء عندكم قيم ، وكل شيء عندكم جديد . »

واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأننا عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا . فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتي أو قفطاني وهو يسألني : « أَعْجبتك المحاضرة؟ » فان قلت : « نعم » قال : « وماذا أعجبك منها ، وهل فهمتها على وجهها؟ » وكان يقول لي : « هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تهالك عليها هذا التهاك ، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع » . فلما ألح علي في ذلك سألته : وإذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك إلى الجامعة؟ وما استماعك للمحاضرات؟ وما تهويشك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع؟ فضحك وقال : الجامعة شيء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن في الجامعة إلا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تفتتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرها الجهل العميق ، لكان هذا كافياً لأن أختلف إلى الجامعة وأستمع للمحاضرات . ثم سألتني ذات يوم : أين تقيم؟ أجبتته : أقيم في حي كذا . قال : ومع من تقيم؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في المدارس المدنية . قال : إن منزلك بعيد وليست بيتك بالتي تحب . فأنا لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك وأتحدث إليك فأطيل الحديث ، بل أنا حريص على أن أقرأ معك بعض الكتب ، فلا بد إذاً من أن نلتقي ، ومن أن

نلتقى في نظام واطراد ، فليكن ذلك عندي ، ولك على أن أردك إلى أهلك
وأصدقائك قبل أن يتقدم الليل ، دون أن تجد في ذلك مشقة أو تحتمل
فيه عناء .

وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن
أمره سيطاع ، وقد هممت أن أرد عليه معذرا ، وما كان أكثر المعاذير !
فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف إلى أحد دون إذن من أخي ،
وكان عليّ أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول ، ولم يكن بد من أن
أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر ، وأن أعوض هذا الوقت
الذي أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخي في القاهرة ، وأسرتي
في الريف .

هممت أن أعتذر ، ولكنه لم يمهاني ولم يتح لي أن أقول حرفا ، وإنما
استوقف عربة ودفعني فيها دفعا ، وأمر خادمي الأسود الصغير أن يجلس
إلى جانب السائق ، وجلس هو إلى جانبي وقال للسائق بصوته الغليظ
العريض : إلى القلعة . وكنت أسكن في أقصى الجمالية . فلما أخذت أقدر
بعد الأمد بين داره وداري ، وهممت أن أتكلم ، وضع يده على كتفي وقال :
ألم أقل لك إني سأردك إلى حيث تقيم ؟!

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة ، ومضت بنا في أجواء متباينة ،
وكنت أحس اختلاف الأحياء ، وتباين الأجواء فيما يصل إلى من أصوات

الناس وحركاتهم ومن اضطراب الأشياء من حولنا ، كما كنت أحس ذلك في سير العربية نفسها وفي لهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه ويطلب إليهم أن يتنجسوا له عن الطريق أو أن يجنبوا أنفسهم خيله وعربته .

كان الحى رشيقياً أنيقاً ، وكان الجو سمحاً طلقاً ، وكانت الحركات والأصوات من حولى لا تخلو من شدة وعنفة ، ولكن فيها ظرفاً وتأنقاً ، حتى إذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد أمامنا الزحام ، وكثر من حولنا الصياح ، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط بأصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل ، وانتشرت في الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار . وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم الناس له وتأنيبهم إياه ، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذى يحدثه السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التى يردعون بها الخيل وينبهون بها المارة . ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، ويخف الهواء وتهدأ الحركة ، ويتنفس السائق مطمئناً ، وتمشى الخيل رفيقة . ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربية ذات اليمين ، وإذا نحن في حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت في أرضها الأخاديد . فالعربة تقفز بنا قفزاً ، والسائق يهز سوطه في الهواء ، ويحذر وينذر فى هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ إلى أن تفتح ، ويشير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم يعيثون بالسائق . ومنهم

من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ، ونحن نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت وراه ، ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه بألفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتعاطف حتى تصل إلى الشتم القبيح ، وكل ذلك يصل إلى نفسى فيحدث فيها آثارا مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة ، لأنى لم أكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة ونزل من العربة ، وإذا صاحبي يقول لى : لم نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا إلى حيث لا تستطيع العربة أن تمضى ، فهل تعودت التصعيد والرقى فى الجبل ، فأنا لا أحب أن أسكن فى السهل المنبسط فأكون كغيرى من الناس . وإنما أحب أن أشرف على القاهرة ، وأن أخيل إلى نفسى أنى لست منغمسا فيها ، وأنى أدخلها إذا غدوت إلى عملى مع الصبح وأخرج منها إذا رحت إلى بيتى مع الليل . ولست أخفى عليك أنى أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطاً إليها من هذه الربوة كأنى أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر على فريسته ، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين أمضى النهار كله فى المدينة مضطرباً مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضاً مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركاً للناس فيما يأتون من خير وشر ، نافعا ضارا منتفعا محتملاً للضرر ، حتى إذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بى ، وأويت إلى جامعكم هذه الجديدة أريح نفسى بما أسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف ، ولكنه على كل حال ليس بذى غناء ،

حتى إذا أخذت بحظي من هذه الراحة الأولى ، رحلت إلى بيتي ، فلا تسل
عن هذا الشعور العذب الذي يغمر قلبي شيئاً فشيئاً كلما دنوت من هذا
المكان ، أحس كأني أنسل من المدينة ، وأتحفف من أثقالها وألقى آثامها
من ورأى وأطهر جسمي ونفسي من أوضارها وأدرانها ، حتى إذا رقيت
هذه الربوة وبلغت قممها هذه — وكنت قد أحسست الجهد من التصعيد
في طريق عالية ملتوية — وقفت وقفة من كان في مكروه فخلص منه .
وأرسلت زفرة يخيل إلى أنها تحمل بقية ما علق بنفسى من شر المدينة ، ثم
تنفست ملء رئتي مرة ومرة ، ثم أقبلت هادئاً مطمئناً قصير الخطى إلى هذا
الباب . وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا .

٤

وانعطف بنا إلى اليمين فشيننا خطوات ، ثم انتهى بنا إلى دهليز ، فرقينا
درجات ، وخادم صبية تسعى بين أيدينا وقد حملت في يدها اللطيفة سراجاً
صغيراً يضطرب منه ضوء ضئيل ، حتى إذا بلغنا أعلى السلم وقف يبحث
في جيبه عن بعض الشيء ، ثم أخرج مفتاحاً فأداره في قفل أمامه حتى إذا
فتح له الباب صاح صيحة عريضة أن اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام
ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انحنيت إلى حدائي أريد أن أخلعه
حقاً ، وأى غرابة في ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء مرات في كل يوم ،
حين كنت أختلف إلى الدروس في الأزهر أو في جامع محمد بك ، أو في

جامع العدوى ، أو في جامع الأشرف . هناك حيث كنت أستمع لدروس الأصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد ، وتعددت خلع الحذاء حين كنت أزور بعض الدور ، ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ، ولا سيما هذا الشيخ الذي كان الخديو قد نفاه من الأزهر نفيًا وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه إلى داره وألحنا عليه في أن يمضي في إلقاء ما كان يلقي علينا من الدروس لا حياءً في علمه ولا تهالكًا على شخصه ، ولكن تحدياً لذلك السلطان الذي كنا نراه جائراً متحكماً ، ولا نريد أن نذعن لجوره ولا لتحكمه ، وآية ذلك أننا نشرنا في الصحف خبر إلحاننا على الأستاذ ، واستجابة الأستاذ لنا ، واختلافنا إلى داره في الضحى من كل يوم نسمع منه الأصول في بعض الأيام ، والمنطق في بعضها الآخر .

هنالك في الدرب الأحمر كنا نبليغ الدار مختلفين ، فبعضنا يتخذ أحذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ أحذية الأفندية ، وكلنا كان يخلع حذاءه ، إذا بلغ المنظرة ، فلم أجد إذاً غرابة في أن يطلب إلى صاحبي أن أخلع نعلي حين بلغنا غرفته هذه ، فلعل ما كان يغطي أرضها من بساط أو حصير كانت تقام عليه الصلاة ، كما كانت تقام على ما يغطي أرض المساجد وأرض منظرة الشيخ من بساط أو حصير . ولكنني لم أكد أنحنى على حذائي لأخلعه حتى امتلأ الجو حولي بضحك عريض رائع مخيف ، ثم امتدت إلى يد صاحبي الغليظة فردتني إلى اعتدال القامة ، وصاحبي يقول : ما ذا تفعل ؟

أفتظن أنك في الأزهر؟ أو هذا كل ما علمته من البيان؟ قلت في شيء من الدهش عظيم: وأي غرابة في أن تخلع النعال عند أبواب الغرف؟ وأين يكون البيان وأبوابه من خلع النعال؟ قال: يا سيدي إنهم يدرسون لكم في الأزهر التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية. وما أشك في أنك تستطيع أن تعيد على كل ما سمعته من هذا، ولكنك تملأ صدرك بما لا تفهم ولا تحسن الانتفاع به، فاني لم أرد أن تخلع نعليك، وإنما أردت أن تكبر هذه الغرفة التي بلغت والتي ستدخلها، لأنها غرفة العلم والأدب، ومستقر الأسفار والكتب، ومهبط الوحي إن كان ما يقع في نفس رجل مثلي يريد أن يكون أديباً شيئاً يمكن أن يسمى وحيّاً. فلو أنك تدرس علم البيان درس فهم وانتفاع حقاً، لما أعيك أن تفهم عني ما كنت أريد. قال ذلك في صوت غليظ يقطعه هذا الضحك الذي يصور السذاجة والمكر وحب السخرية في وقت واحد، ثم أخذ بيدي ومضى معي حتى أجلسني على كرسي أمام مائدة لم أكد أضع عليها يدي حتى لمست كتاباً.

وكانت الخادم في أثناء ذلك ما زالت قائمة وفي يدها اللطيفة سراجها الصغير. فالتفت إليها مغضباً ضاحكاً معاً، وهو يقول: وما وقوفك أنت هنا كالصنم؟ ثم خفض صوته قليلاً وقال: ومع ذلك فإن منظرها جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن.

ولم تنصرف الصبية بسراجها، وإنما ظلت في مكانها حتى مد يده إلى سلسلة تضطرب في الجو فجذبها إليه في شيء من العنف، حتى إذا هبط

إليه المصباح المعلق في السقف أضاءه ورفعته ، وقال للصبية انصرفي الآن وعشينا إن كان عندك طعام .

ثم جلس مني غير بعيد وأشار إلى غلامي الأسود الصغير أن استرح حيث تشاء ، وبدأ حديثه معي في لهجة الحازم الجاد . فقال: والآن ياسيدي يجب أن ندع اللغو فما جئنا هنا لنلغو ولا لنلهو ، وأن نأخذ في الجد فللجد وحده أقبلنا ، فحدثني من أنت ، وسأحدثك من أنا حتى إذا عرف كل منا صاحبه أخذنا فيما ينبغي أن نأخذ فيه . قلت: فانك تنظم الأمر كما تحب ، تتحكم في ذلك تحكما غريباً ! لا تسألني عن شيء ، ولا تستشيرني في شيء ، فإني لم أطلب إليك أن أجيء إلى هذا المكان ولا أن آخذ معك في لغو أو جد . قال مقاطعاً: فأنت لا تريد إذاً أن تحدثني عن نفسك حتى أحدثك عن نفسي . فسأحدثك عن نفسي ولكن بعد أن أنبئك أني أعرفك حق المعرفة ، وكنت خليقاً أن تعرفني لولا أنك حديث السن .

ثم قص عليّ من أمري ما كنت أظن أنه أبعد الناس عن العلم به ، ولكنني لم أدهش لذلك حين ذكر لي اسمه وتحدث إلى عن أسرته، وأنبأني بأنه من هذه القرية التي ليس بينها وبين مدينتنا إلا ساعة أو بعض ساعة اللذين يمشون على الأقدام ، وأنه قد نشأ في مدينتنا ، أو أكثر التردد عليها حتى كأنه نشأ فيها ، وأنه قد تعلم القراءة والكتابة في نفس الكتاب الذي تعلمت فيه ، وقد عرف إخوتي الذين سبقوني إليه ، وقد ظلت المودة متصلة بينه وبين بعضهم حتى تركت أسرتنا هذه للمدينة إلى أقصى الصعيد . وحتى

هبطنا نحن إلى القاهرة نطلب العلم في مدارسها المختلفة .
منذ ذلك الوقت تقطعت الأسباب أو رثت بينه وبين من كان يود من
إخوتي ، يسألني عنهم واحداً واحداً ، وأنا أجيبه ، ثم أسأله عن نفسه
كيف تعلم وماذا يعمل الآن ؟ فينبئني بأنه أتم درسه الثانوي منذ أعوام ،
واتصل بوزارة الأشغال يعمل فيها كاتباً في بعض الدواوين يختلف إليها
وجه النهار ، ويعكف آخر النهار وجزء غير قليل من الليل على القراءة
والدرس حتى كلف بهما أشد الكلف ، وأصبح عمله في الوزارة وسيلة آلية ،
على حين هو عند أتربة من الشبان غاية لا يلتمسون غيرها غرضاً من
أغراض الحياة .

ولم يكده يتقدم الحديث بيننا في هذه الشؤون حتى أقبلت الخادم تزيل
ما على المائدة من كتب تهيئها للأطباق وآنية العشاء . وقد زالت الكفافة
بيننا وأخذت أسمع منه وأتحدث إليه كما يكون الأمر بين إلفين قد بعد
العهد بما بينهما من المودة والحب والمخالطة ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف
ولا عناية بما يقولان .

وما هي إلا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم نلبث أن
وجدناها مشتركة بيننا ، وكلها متصل بحياتنا في الريف .

٥

قال لي في بعض ما كان يقول ، وقد هدأ نشاطه وانخفض صوته ،
ورقت لهجته ، وجعل يتحدث إلى كأنما يهمس همساً وكأنما يصدر

صوته عن نفس متأثرة أشد التأثر ، وقلب يملؤه الود والحنان . ولو أنى استطعت أن أرى وجهه في تلك الساعة لما شككت في أنى كنت خليقاً أن أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات الحنان .

قال لى في هذا الصوت العذب : « هبنى في القرية ، وهبك في المدينة ، وهبنى أريد أن أزورك لأفضى معك شطراً من النهار ، فأين ألك ؟ »

قلت : « إنما يزار الناس في دورهم » . قال : فإني لا أريد أن أزورك لأننى لا أريد كلفة ولا حرجاً ، ولا تقيداً بهذه الأوضاع التى يتقيد بها الناس ، ولا سيما الشباب والصبية ، حين يتزاورون في الدور ، حيث الآباء والإخوة الكبار . إنما أريد أن ألك حراً ، طلقاً ، لا تحسب حساباً لشيء ولا لأحد ، وأحب أن تلقى عن رأسك هذه العمة الثقيلة التى تضطرك إلى وقار لا أحبه لك ، ولا أرضاه منك ، وأن تخرج من هذه الثياب التى لا يلبسها إلا الشبان الذين تقدمت بهم السن إلى ضحوة الشباب ، فأنت فى آخر ليل الطفولة ، وفى أول فجر الشباب . قد أخذت نفسك تتفتح للحياة وتبسم لها ، وتخرج من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر الأشياء ، وأن تزنها وأن تحكم عليها فى هذا الغرور الجميل اللذيذ ، الذى ينجيل إلى الغلمان أنهم رجال ، ويلقى فى روعهم أن آراءهم موفقة دائماً ، وأن أحكامهم صائبة دائماً ، وأن الكبار من الرجال يخطئون ، حين يسيئون الظن بهم ، ويرونهم صغاراً ، ولا يشركونهم معهم فى كبار الأمور .

ألق إذا هذه العمه ، واخرج إذا من هذه الجبة ، ومن هذا القفطان ،
وعد إلى ثوبك الواسع الفضفاض ، الذي كنت تلبسه قبل أن تهبط إلى
القاهرة ، والذي كان يمتاز من ثياب أترابك من أهل الريف بضيق كميه
وتكسرهما بعض الشيء عند آخرهما ، وبهذا التكسر المنظم على الصدر ،
وفي أعلى الظهر وبهذا الحزام العريض الذي كان يتصل به عند الخصر ،
ولكنه لا يحيط بالجسم كله وإنما قطعتان قد خيطتا على جانبي الثوب
من يمين وشمال ، ثم وصلت إحداها بالأخرى أزرار من الصدف . عد إلى
هذا الثوب وضع على رأسك ذلك الغطاء الرقيق الأبيض الذي يسمونه
الطاقيه وما هو بالطاقيه وإنما هو شيء يصطنعه المترفون من أهل المدن في
الأقاليم يقلدون به بعض فلانس الفرنجة ويسمونه الطاقيه الإفرنجية .

عد إلى هذا الزي ، وسأخرج أنا من هذا الزي الأوربي وأعود إلى
الزي الذي كنت أصطنعه في الريف حين لم أكن أذهب إلى المدرسة
فأدخل في ثوب من الصوف ، مفتوح على الصدر ، وأتخذ على رأسي
الطربوش ، كما يفعل المترفون من أبناء العمدة ، فأنت تعرف أني ابن عمدة
وسأزورك ماشياً لا أركب لهذه الزيارة فرساً ولا حماراً ، لأنني أريد أن
أكون حراً طلقاً ، وأن أقضى معك وقتاً لا يشغلني فيه التفكير في فرس
أو حمار .

عد إلى زيك القديم وسأعود إلى زيي القديم وانتظر أن أزورك ،
وحدثني أين ألقاك ، على ألا يكون اللقاء في بيتك فأنا أعرفه حق المعرفة ،

ولا أريد أن أجلس في المنظرة ، ولا أريد أن أجلس في ظل هذه العنبات التي تقوم إلى جانبها ، ولا أريد أن ألب في هذا الفناء ، الذي ينسبط أمامها والذي ترونه واسعاً وأراه ضيقاً ، والذي يحب أبوك أن يجلس فيه إذا كان العصر ، والذي يؤثر سيدنا أن يقرأ فيه القرآن كل يوم قبل أن تطلع الشمس .

إنما أريد لقاء حراً ، في مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا إذا تحدثنا ، أو يسألنا أين تذهبان إذا أردنا أن نمضي أمامنا وألا نلزم مكاناً بعينه .

قلت وقد أثر في نفسي حديثه وصوته ولهجته وما أثار من الذكرى ، فرجعت إلى ذلك الطور الذي كنت فيه حين فارقت المدينة لأهبط إلى القاهرة ، ورجعت إلى ذلك الزى الذي وصفه والذي كنت أعود إليه كلما عدت إلى الأقاليم .

قلت : فستلقاني إذاً في طريقك جالساً أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت في الحديث وفي النظر إلى من يأتي من الغرب ، أو من يذهب إليه ، وإلى النساء وهن يذهبن إلى الإبراهيمية ليملأن جرارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رءوسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همساً بينهن ، أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح ، أو في الاستماع إلى حديث هاتين المرأتين اللتين

تكتنفان الدكان عن يمين وشمال، إلا أن إحداهما تلاصقه والأخرى قد أقامت دارها في الناحية الأخرى من الشارع . أتعرفهما؟ قال : كما تعرفهما ، فأما الأولى فزنوبة ، وأما الأخرى فأم محمود . كلتاهما تجلس على باب دارها وتتحدث إلى صاحبها ألوان الحديث ، في صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ولين ، وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا الحديثهما وليدخلوا فيه من حين إلى حين ، حين يكون الحديث دعابة ، وما أكثر ما يكون الحديث دعابة بينهما ، فهما لا تحسنان في الحياة إلا الدعابة وكسب المال . قلت : فستلقاني جالساً على أحد هذين الصندوقين ، فقد تعودت أن أقضى وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما في أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص والوعظ ، لا ينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قراءتنا إلا حين تأتي امرأة أو فتاة لتشتري بعض الملح ، أو الفلفل أو الخيط ، أو ما يباع عندهما من سقط المتاع .

قال : فقد انحدرت إليك من الغرب ، ولم أكد أهبط من الجسر حتى مررت بهذه الدور التي تعرفها فحيت حسن كوزو وهو جالس أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبناؤه ، وهم يلغظون لغطهم المتصل ، ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيته لاستوقفني ولسألني : فيم أقبلت ؟ وكيف تركت أبي ؟ وما بال أبي لا ينحدر إلى المدينة ؟ وما أشك في أنه كان سيستبقيني ، ولعله كان يلح على في أن أتعدى

عنده ، فهو حريص على أن تتصل المودة بينه وبيننا ، ولكنني جزت الدار سالماً لم ألق أحداً ولم أتعرض لهذا الإكرام الذي كنت أخشاه . وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث إلى صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه ، إنما كنت معتزلاً على صندوقك ، قد انثنى أعلاك على أسفلك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس من حولك قائمون ، منهم من يشتري ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من يمنح طرفه زنوبة ، ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان المارد ابن العمدة ، يذهب في الشارع ويجيء ، متحدثاً متغنياً ، يلقي نظره خلسة إلى هذه الحارة عن عن يمين الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامراته الشابة ، وحماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .

وهأنذا أنتهى إليك فأضع يدي على كتفك ، وها أنت ذاتذر لمكانى منك ، ولكنك لا تكاد تسمعنى أحييك حتى تطمئن إلى وتبتسم لى ، وتدعونى إلى الجلوس ، ولكنى أبى ذلك عليك ، وأنهضك وأخذ بذراعك ثم نندفع معاً فى هذا الشارع الذى يكاد يواجه بيت زنوبة ونمضى معاً إلى القناة .

أنظر هانحن هذان قد بلغنا القناة ، فأما عن يميننا فخديقة جرجس أفندى ، ثم المنحدر إلى بيتكم ، وأما عن شمالنا فخيام العرب ، الذين اختاروا هذا المكان مضرراً لخيامهم ، والذين يخفرون هذا الطرف من أطراف المدينة . إلى أى الوجهين تريد أن نمضى ؟ أتريد أن نمضى إلى

يمين لنبلغ المدينة ، أم تريد أن نمضى إلى شمال نحو الغرب لنبلغ الإبراهيمية ،
فناوى إلى ظل شجرات التوت ، أو نمضى أمامنا فى هذه الحقول التى
لا تكاد تنتهى . أم تريد أن نعبّر القناة فليس عبورها شاقاً ولا عسيراً ،
فهى جافة فى هذه الأيام ؛ ألسنت تحس من حولك هؤلاء الصبية ، وهم يلعبون
فيها ، ويلتمسون ما تخلف فى طينها من صغار السمك ؟ إلى أين تريد أن
نمضى ؟ إننا إن عبرنا القناة ، لم نمض غير قليل فى هذا الفضاء الواسع الطلق
حتى نبلغ الخط الحديدى ، فاذا عدونا فقد انتهينا إلى المدينة من طريق
قريبة . إلى أين تريد أن نمضى ؟

وما أراى محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنت تريد من غير شك
وأنا أيضاً أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فانها يسيرة مألوفة ، وهى طريق
الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون إليها ، وهى خليقة أن تقدم لنا
من ضروب اللهو وألوان العبث والمتاع ما نبتغى . فليس بيننا وبين حديقة
المعلم إلا خطوات . ها نحن هذان قد بلغناها ، وآثرنا أن نميل إليها فنجنى
من ريحانها ، ونقتطف من أثمارها ، ونستظل بأشجارها ساعة لتحدث
فيا تعودنا أن نتحدث فيه ، إنها جميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة ، ولم
يعمل فيها المنسقون ، وإنما هى حرة مطلقة ! ينبت فيها الزهر والشجر
كما يريدان فى غير قيد ولا نظام ، وإنها جميلة حين تتقدم فى رشاقة وخفة
بما تحمل من زهر وثمر ، وورق نضر وأغصان لدنة إلى القناة ، كأنها تريد أن
تهدى هذا كله إلى هذا الماء حين يجرى فيها تويهاً هادئاً موفور النشاط مع
ذلك كأنه إله شاب من آلهة الأساطير .

أنا أعلم أنك تحب هذه الحديقة وتجد لذة في أن تخلو فيها إلى نفسك فتقص عليها ما تتصور من الأحداث والخطوب ، أو تعيد عليها ما تسمع من القصص والأحاديث . وما ملت بك إليها إلا لأني أعلم أنك تحبها وتؤثر أن تقضى فيها ساعات بعيداً عن الناس قريباً منهم في وقت واحد . فأنا أعلم أنك لا تحب العزلة الخالصة ، ولا تحب الخلطة الخالصة ، ولكنني أحس الآن كأن مكانك ينبو بك ، وكأنك لا تطمئن إلى الحديقة أو كأن الحديقة لا تريد أن تتلقاك بما تعودت أن تتلقاك به من البشر والأنس والحنان . أحس أن جسمك كله يضطرب كأنه يكره السكون ، ويدفع إلى الحركة دفعاً . ماذا تنكر من هذه الحديقة ؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة ؟ لم لا تريد أن تخلو إلى كما تخلو إلى نفسك ، وأن تقص على كما تقص على نفسك ما تعيده عليك الذاكرة أو ما يخلقه لك الخيال . ها أنت ذا أشبه شيء بالجواد الجروح الذي يعرض شكيمته ، ويضرب الأرض بسنابكه ، ويكاد يخرج من جلده مرحاً وشوقاً إلى العدو . إلى أين تريد أن نمضي ؟

وهو يقول هذا كله في لهجة جد واقتناع ويقين حتى ينسبني مكاني منه ، ومكانه منى ، ومكاننا من القاهرة ، وحتى يقنعني بأننا صديقان ، أو شابان نقصد إلى النزهة في ريفنا ذلك البعيد ، وقد سمعت منه ، وأمنت له ، وهممت أن أجيبه . ولكنه منطلق لا يريد أن يقف ، متدفق لا يريد أن يهدأ ، يسأل ولا ينتظر الجواب ، وإنما يجيب هو ويمضي في حديثه لا يلوي

على شيء ، وأنا أسمع وأتبعه ، وهو يسرع في الحديث ، وكأنه يسرع في الحركة ، حتى يُعيني سماعه ، ويعجزني اتباعه . ولكنه ماض في حديثه ، ماض في حلمه ، لا يقف عند شيء ، ولا يلوى على شيء . والغريب أنه كان يتحدث فيثير في نفسى مثل ما يثير في نفسه من الذكرى . ثم يتحدث عنى وعمّا أحب فكأنما أنا أتحدث عن نفسى .

قال : فإنك لا تريد البقاء في هذه الحديقة لأن نفسك لا تنهياً للخلاوة ولا للحديث الهادى المطمئن ، وإنما أنت اليوم مهياً للحركة والنشاط الجسمى ، وما أرى أنك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشى جهداً ثقيلاً ، ولولا أنك شديد الحياء ، وأنتك تخشى المصاعب والعقبات ، لآثرت العدو ولكلفت بالجرى السريع . فهلم إلى الطريق العامة فليس لك في هذه الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعاً يشبه العدو، ولكنك لم تطاوعنى إلا قليلاً . وهأنذا أحس أن قدميك ثقيلتان وأن نشاطك ينال منه الفتور ، وأنتك تؤثر مشياً رزيناً هو إلى التللكو أذنى منه إلى الجد والسرعة . لقد فهمت أن مكانك من هذه البيوت الأربعة التى تنتظم على شاطئ القناة فى نسق بديع وقد امتدت أمامها حدائقها الواسعة ذات الشجر المنتف والأغصان المتدلية على الأسوار . وأنت تريد أن تسعى سعياً هيناً إلى جانب هذه الأسوار ، وأن تداعب بيدك هذه الأوراق الخضر النضر لأنك تجد فى مسها راحة ولذة ونعياً لنفسك وهدوءاً لقلبك الذى قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وأن تعبت بهذا اللبالب الذي يتلوى على سور الأمور ،
تريد أن تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ، ولكنك تعلم
أنه لا يستقيم ، ولا يجب الاعتدال . ثم أنت تريد أن تطيل الوقوف عند
بيت الملاحظ . وما أظن إلا أن نفسك تنازعك إلى أن تطرق الباب ،
وتدعو عثمان أو محموداً . فمن يدري ! لعل أحدهما أن يستجيب لك وأن
يدعوك إلى الدخول لتتحدث إليه ، أو إليه وإلى أخيه ساعة من نهار .
إنك لشديد المكر ، وإن نفسك لشديدة الالتواء . لم تكذب على نفسك ؟
وتكذب على ؟ إنك لا تريد عثمان ، ولا تحب الحديث إلى محمود ، وإنما
تريد أن تدخل الدار وأن تقطع إليها هذه الحديقة العريضة متلكتاً بعض
الشيء ، متكلفاً بعض الأناة والمهل . حتى إذا بلغت الدار وأجلست في
هذه الحجرة المتواضعة التي لا تمس القدم فيها أرضاً عارية كالتي تمسها
حيث تلعب في بيتك أو حيث تجلس عند الدكان ، وإنما تمس أرضاً
قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك في هذه الحجرة لا تلقى
إلى صاحبك إلا إحدى أذنيك ، أو بعض ما تستطيع أن تلقيه منها . فأما
أذنك الأخرى فمرسلة إلى داخل الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق .
إنك لا تريد عثمان ولا تبتغي الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تسمع
أحد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة في الفصن
المورق اللدن . بل أنت أسعد الناس إن أتيح لك الاستماع إلى
الصوتين جميعاً .

أيهما آثر عندك وأحب إليك؟ صوت هذه الفتاة الناهد التي تسمى
عزيزة والتي توشك أن تلعب معك ومع أخويها لولا ما تأخذها به أمها
التركية وأبوها الألباني من تكلف الوقار والاحتشام. فهي تجلس اليك
وتسمع منكم وقد تشارككم في الحديث، وقد يضحكها ما تخوضون فيه،
فإذا ضحكها يضطرب في الحجرة مشرقاً صافياً مضيقاً كأنه البلور. أم صوت
أختها أمينة هذه التي نيفت على العشرين، وجاوزت طور اللعب، وتزوجت
ثم طلقها زوجها فعادت إلى أسرتها كثيراً محزونة هادئة الصوت، ولكن
صوتها الهادي يثير في قلبك وجلاً، وفي نفسك اضطراباً، وفي أعماق
ضميرك قلقاً لا تتبين أصله، ولا سره، ولكنك تخافه وتحبه معاً. أي
الصوتين آثر عندك وأحب إليك؟ إنني لأخشى أن تكون فاجر النفس ماجن
القلب. مسرفاً فيما يتيح لضميرك من حرية. إنك لتحب الصوتين جميعاً،
وتألف الأختين جميعاً، وتحب أن تنعم ما وسعك النعيم بما تثيران في نفسك
من هذه العواطف الحادة المهمة الغامضة، وإنك لتسمع لها إذا تحدثتا
أو ضحكتا أو جاءتا بشيء من الحركة فتعنى عنهما هذا كله، وتسجله في
نفسك تسجيلاً حتى إذا عدت إلى دارك، وآويت إلى مكانك الذي
تعودت أن تعتزل فيه، أخذت تعيد في نفسك ما سمعت من كلام، ومن
ضحك، ومن غناء، وأخذت تتخيل ما أحسست من حركة، وأخذت
تتمق هذا كله، وتستخرج منه صوراً، ومعاني وعواطف وخواطر،
لا تحصى ولا تستقصى ولكنها تنسيك نفسك وأهلك ودارك وتنتهي بك

إلى عالم غريب هو أحب إليك ألف مرة من هذا العالم الذي تعيش فيه .
قل الحق ؛ ألسنت أصور ما تجمد ، وأقص ما تحس ، وأحدثك بما تحب أن
أتحدث إليك فيه ، ولكنك قد أطلت الجلوس بين عثمان ومحمود ، والاستماع
لعزيزة وأمينة ، وهذا صوت المؤذن ينتهى إلينا داعياً إلى صلاة الظهر ،
وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير ، ولئن بقينا لندعين إلى الغداء ، وأنا
أعرف أن حياك وأدبك يأبيان عليك أن تستجيب لهذا الدعاء ، وأن
نفسك تنازعك إلى البقاء . وما أظن إلا أنك لو أرسلت نفسك على سجيبتها
لأقت . ولا حتمت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمتع بعدها بساعات طوال ،
تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان . ولكن لا سبيل
إلى الإقامة . وماذا نصنع بحيائنا ؟ وماذا نصنع بأدبنا ، وكيف تلقى أمك ؟
وكيف تجهيها ؟ وكيف تثبت للومها العنيف حين تصور لك أن الفتيان الذين
يحسن أديهم لا يبقون في الزيارة إلى أن يدركهم الغداء ، ولا يستجيبون
إلى الطعام ، إذا لم تسبق دعوتهم إليه .

هلم أيها الصديق البأس الحزين ، ودع أمينة وعزيزة ، فقد يتاح لك أن
تراهما إذا كان الغد أو إذا كان المساء . فأما الآن فصدقني ليس لنا في هذه
الدار مقام .

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار ، وأغلق من دوننا الباب ، ورجع
عثمان ومحمود أدراجهما في الحديقة واستقبلنا القناة ، فوقفنا على شاطئها لحظة

مترددين ، أعود إلى حيث كنا بعد أن تقدم النهار ؟ أم نمضي عن يمين إلى المدينة وإن عرضنا ذلك لشيء غير قليل من اللوم .

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو انخط الحديدى نسعى هادئين . أما الآن فإني أحمد جدك وحزمتك وشجاعتك وإصرارك على أن تنصرف حين هممنا بالانصراف ، وإيائك على عثمان ومحمود وإيائك بنوع خاص على عزيزة وأمينة ، وقد كانوا جميعاً يلحون علينا في أن نبقى ويرغبوننا في البقاء ، يعرض عثمان ومحمود علينا أن يظهرانا على ما عندهما من أعاجيب القاهرة ، هذه اللعب التي لا تنتشر في الريف ، ولا يألفها أهل الأقاليم ، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو . وتعرض علينا أمينة القراءة في بعض القصص ، وأنت مصمم على الانصراف برغم نفسك التي كانت تنازعك إلى البقاء نزاعاً شديداً .

على أنى لا أفهم كلفك بالاستماع لعزيزة وأمينة ، وافتتانك بأحاديثهما هذه التي يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة في تأنق وتكلف وتعمد للفتنة ، كأنما تريد كل واحدة منهما أن تدل على نفسها ، وتنبهنا إلى أنها ليست منا ، وإلى أننا لسنا منها في شيء ، وإنما هي من هذا العنصر الممتاز الذى لا ينطق الجيم كما ننطقها ، ولا يحول القاف كما نحولها إلى جيم غليظة ، وإنما يحيلها إلى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع في الأسماع ، ولا يتملئ فيه بالكلام يهدر به كما تهدر الإبل ، وإنما يضيق به ويتلطف في إرساله ويجريه هادئاً حلواً رقيقاً ، فيخرجه أحسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن

إلقاء الجنادل والصخور . لا يعجبني شيء من هذا لأنى أراه تكلفاً وتصنعاً .
ومن يدرى ! لعلنا إن رأيناها في القاهرة ، واستمعنا لها في بيئتهما الطبيعية
أن نجدهما أقل تكلفاً وأدنى إلى الفطرة ، ولعلهما يومئذ أن تجدا إلى نفسى
الغليظة سيلاً . أما الآن فإن قلبى مغلق دونهما إغلاقاً ، وإنى لأؤثر ألف
مرة عليهما فتياتنا الريفيات ، وما يمتزج به من حياء حلو وخفر ناعم ، وحديث
عذب على غلظته ، وصوت محبوب إلى النفوس على ما يضطرب فيه من
بعض الجفاء ، ستغضب وستثور وستنكر ذوق أشد الإنكار ، ولكنى
لا أتردد مع ذلك فى أن أعلن إليك أنى أوثر كاملة بنت عالية وأخت
غريب ، على عزيزتك هذه المتكلفة المتصنعة . وأوثر خديجة بنت محبوبه
وأخت على ، على أمينتك هذه التى ترى أن ليس على الأرض امرأة
تعدها أو تدانى حظها من الرقة والجمال .

إنى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لا يجتلب ، ولا يشتري ، وإنما
تخلعه الطبيعة وتقيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن الذى تحدث
عنه المتنبي . أتذكر بيته ؟ إنه مشهور :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

٦

وكأن هذا البيت من شعر المتنبي قد أيقظ صاحبه من نوم عميق ،
ورده من هيام بعيد ، ونهينى أنا إلى مكانى منه ، وإلى مكانه منى . فما

كان لشابين جاهلين من شباب الريف أن يديرا بينهما مثل هذا الحديث، أو يذكر كما مثل هذا الشعر. وأين حديث الريف الساذج اليسير الذي لا فلسفة فيه ولا تعمق من هذا الحديث الطويل الذي اندفع فيه صاحبي كأنه السيل لا يردده شيء، والذي أخذ يتكلف فيه ما تكلف، ويصطنع فيه ما اصطنع على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة في التفكير والتعبير. فلما سمع صوته ينشد هذا البيت ثاب إلى نفسه، وثبت أنا إلى نفسي وإليه، فلبث دقائق صامتاً لا يقول شيئاً كأنما كان يستجمع قواه المفرقة، ويدعو إليه نفسه الشاردة، وينتظر أن يعود إليه عقله وقلبه من مدينتنا تلك في الريف، فلما استجمع من ذلك كله ما كان يريد قال في صوت هادى عميق: أين أنا، وماذا كنت أقول؟ ثم أرسل ضحكته العريضة الخفيفة ونهض قائماً وهو يقول: أما إننا قد طعمنا حتى اكتفينا، هذه الصبية البلهاء قد أقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها أن تدعونا إليه، كأنما ظننت الحقاء أنى رأيتها أو سمعتها أو أحسست مقدمها وكأنها لم تشعر أنا كنا غائبين نسعى في مدينة من مدن الريف، وهذا خادمك الأحمق قد جلس على كرسيه عند باب العرفة وهو يفظ ممعنا في نومه العميق كأن أحاديثنا لم تكن تعجبه ولا تروقه ولا تصل إلى نفسه الغليظة المحجبة بحجب الجهل والجفوة والغفلة. ثم ثاب إلى ووضع يده على كتفي وهو يقول: وأنت ماذا أحسست من هذا الحديث؟ ولم يمهلنى، ولم ينتظر منى جواباً، وإنما اندفع يقول: ما أرى إلا أنك ظننت بى الجنون وأخذت تسأل نفسك أين أنت،

وتمت الساعة التي لقيتك فيها وتلوم نفسك لأنك طاوعتني واستجبت
لدعائي ، وتشفق ألا تتاح لك العودة إلى أخيك . ومن يدرى ! لعل المتنبئ
قد أتقذك حين جرى هذا البيت من شعره على لساني فردني إلى نفسي
وإليك ، ولعلك إن بقيت تسمع لي وأنا أمضي في هذا الهديان ، كنت
مضطراً إلى أن تنتهي آخر الأمر إلى الملح والجزع ثم إلى الاستغاثة
والصياح ، ومع ذلك فثب إلى نفسك وامنحني بعض عنايتك وحدثني :
أليس هذا فناً من الشعر ونحواً من أنجائه ؟ لا تظن أن القدماء من الشعراء
كانوا يصنعون شيئاً غير هذا حين كانوا يققون ويستوقفون على الأطلال
والديار ، وحين كانوا يذكرون ويذكرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها من
الأحبة والأخلاء ، وحين كانوا يتبعون الظاعنين ويصفون ماسلكوا من طريق ،
وما عرض لهم في سفرهم من خطوب ، وما أنصوا من إبل وما وردوا من
ماء آجن وما انتهوا إليه من مرعى . إنما كانوا يصنعون مثل ما صنعت
ويهمون مثل ما همت ، وينسون أنفسهم كما نسيت نفسي ، ويرسلون
قلوبهم كما أرسلت قلبي على جناحي هذا الطائر الخفيف الرشيق الذي يحسن
الإسراع ويحسن الإبطاء ويحسن المضي ويحسن الوقوف وهو الذكري .
وحدثني أفهمت شيئاً من حنين القدماء على وجهه حين قرأت ما قرأت
من شعر امرئ القيس ، وغير امرئ القيس من هؤلاء الذين كانوا يحسنون
الذكرى ويحيدون تصوير الوفاء . إنما هي عندك ألفاظ تقع في أذنيك كما
يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فإن أعجزك الفهم سألت

كتاباً من كتب اللغة فلا ينبئك إلا بظاهر من معانيها . لا تكاد هذه الألفاظ تتجاوز أذنيك إلى عقلك فضلاً عن أن تتجاوزها إلى قلبك وإلى ضميرك فتشير فيهما عاطفة أو هوى أو ميلا ، وتدعوك إلى أن تقدر الحياة كما ينبغي أن تقدر الحياة . صدقني أنكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الأدب ، وإنما تدرسون ألفاظاً ومعاني وصوراً ليست من الشعر ولا من الأدب في شيء .

قلت وقد أعجبني حديثه وأرضتني آراؤه ، ولكنني على ذلك ضقت بهذا السيل الذي لا يقف ، وأشفتت من أن يمضي فيه كما مضى في الذكري آنفاً ، ومن أن ننفق بقية الليل كما أنفقنا أوله ، وأشفتت بنوع خاص من أن يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عما نحن في حاجة إليه من التفكير في العودة إلى بيتي ، فما أشك في أن غيبتني قد طالت ، وفي أنها ستطول ، وفي أنها ستلحظ ، وفي أني سأسأل عنها إذا كان الغد .

قلت ضاحكاً : فما يمنعك أن تعلن آراءك هذه إلى الناس في صحيفة من الصحف ، أو في محاضرة من المحاضرات ، بل ما يمنعك أن تلقى على الناس دروساً في الأدب ، فيسمع لك الشباب ، وسينتفعون بما تلقى إليهم من حديث ؟ ثم ما يمنعك أن تمضي معي في هذا الحديث أثناء العشاء ، وبعده وأثناء الطريق ما دمت قد ضمننت لي أن تصاحبني إلى بيتي البعيد . قال وهو يضحك ضحكا غليظاً : قل ما يمنعك أن تكف عن هذا اللغو وأن تأخذ في الجد فقد زعمت لي أننا لم نجتمع هنا للغو وإنما اجتمعنا للجد .

وهذا حق ، فما في شيء من هذا كنت أريد أن أتحدث إليك ، وما إلى شيء من هذا دعوتك الليلة ، وإنما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد شط بي ودفعني إلى الاستطراد ، فلنعد إذاً إلى ما كنا نريد أن نأخذ فيه ولنقبل على طعامنا قبل كل شيء .

وأخذنا في حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يعجل عودتي إلى بيتي ، فقد كان الجد الذي يريده صاحبي أنه يجب أن يكون بينه وبينى تعاون في الدرس ، يعلمني بعض ما عنده ، وأعلمه بعض ما عندي . فهو يرى أن أمري في الجامعة لا يستقيم إلا إذا تعلمت لغة أجنبية وألمت ببعض هذه العلوم التي كنا نجعلها في الأزهر جهلاً تاماً ، والتي كان جهلنا إياها ينجح إلى وإلى أصحابي أننا نسمع من المحاضرين في الجامعة الأعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم إلا أيسر الأشياء وأهونها .

وهو كان يريد أن يمنحني من ذلك ما ينقصني ، لا يسألني على ذلك أجراً إلا أن أعوده معاشرة كتب الأزهر ، والتصرف في علم الأزهر بين . وكانت علوم ثلاثة من علوم الأزهر تحلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهي المنطق والفقه والأصول . فأما المنطق فقد كان أمره يسيراً ، وكنت أرى أنني أستطيع أن أقرأ معه كتاباً من كتبه المختصرة . وأما الفقه والأصول فقد كان أمرهما أعسر من ذلك وأشق . وأتى لي أن أعلمه علماً لا أحسنه ، وما أظن أنني سأحسنه في يوم من الأيام ؟ وهو مع ذلك مصمم على أن يدرس المنطق والفقه والأصول وعلى أن يعلمني الفرنسية ، ويقراً معي ما أحب

من التاريخ وما أشاء من هذه الكتب التي لا بد من قراءتها لمن يريد أن يعيش في هذا العصر الحديث عيشة لا غرابة فيها . وكان حوارنا طويلاً شاقاً ملتويًا فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد يسفر الصبح . وما كدنا نبلغ حينًا في أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن ينبئ الناس بأن « الصلاة خير من النوم » ، وكنا لم نتم فعدنا أدرجنا وفي ذلك اليوم جلس معي إلى أستاذ الأصول رجل ليس على رأسه عمامة بل على رأسه طربوش .

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقي في الجامعة كل يوم إذا كان المساء . وعلى أن نرتب أمرنا بيننا ، يعلمني الفرنسية وأعلمه المنطق . ومن ذلك اليوم لم نفترق حتى أتيج له أن يسبقني إلى باريس .

كنا نلتقي في قهوة بشارع كوبري قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة ، فنأخذ في أحاديث مختلفة ، وكثيراً ما كان يشاركنا في أحاديثنا بعض الطلاب حتى إذا أقبلت ساعة الدرس نهضنا إليه . أما هو فكان ينهض متثاقلاً دائماً ، وأما أنا فكنت أنهض خفيفاً شديد النشاط . وكان يضحك من خفتي . وكنت أضحك بثاقله ، وكان يقول لي هون عليك فليأتينَّ يوم تنصرف فيه عن هذه الدروس انصرفاً .

ولم أكن إذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه ، ولم يكن ينغص على الاستماع للأستاذ ، حتى إذا انتهينا من الاستماع انصرفنا إلى داره أو إلى

فهوتنا في شارع كوبري قصر النيل فزعم لي أنه يعلمني الفرنسية ، وزعمت له أني أعلمه المنطق ، والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئاً ، وإنما كنا نمضى في لغو مختلف متصل كهذا الذي صورت بعضه آنفاً ، وكنا ننفق في هذا اللغو خير أجزاء الليل ، ثم نفترق . فأما هو فكان ينفق بقية الليل في القراءة أو الكتابة ثم في نوم قليل ، ثم يصبح فيغدو على ديوانه . وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل في تفكير طويل مضطرب لا يكاد يذيقني النوم إلا غراراً ، فاذا دعا المؤذن إلى الصلاة أسرع إلى الأزهري ، وقضيت وجه النهار مستمعاً للأستاذة أو دارساً مع الطلاب حتى إذا أقبل المساء التقينا كدأبنا في كل يوم .

وانقضى العام الأول والثاني والثالث من حياتنا في الجامعة على هذا النحو ، لم يتقدم هو في درس المنطق ولم أتقدم أنا في درس الفرنسية ، ولكننا تقدمنا في إدارة هذه الأحاديث الطويلة المختلفة التي تلم بكل شيء ولا تكاد تتقن شيئاً ، ولكنها تفتح القلوب لألوان من العواطف وتبهيء النفوس لضروب من الخواطر ، وتغير الطريق التي كان كل واحد منا قد رسمها لنفسه في الحياة .

كان يريد أن ينفق حياته موظفاً يتقف نفسه ثقافة جديدة في كل يوم ويلتمس لذته في القراءة والكتابة والحديث . فأصبح أشد الناس بغضاً لديوانه ، وزهداً في عمله ، ورغبة في أن يهجر مصر ويعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى ، وتتغير فيها

الحياة من جميع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخاً من شيوخ الأزهر مجدداً في التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده ، أستعين على ذلك بما أسمع في الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد في الصحف ، وما أتلقظ من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافاً عن الأزهر ، ونفوراً من دروسه وشيوخه ، وحرصاً على أن أهر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه ، ولم يكن لصاحبي ولا لي إذا التقينا حديث إلا هذه الهجرة وأسبابها وإلا هذه الأحلام العريضة البعيدة التي لا حد لها ، والتي تستأثر بنفوس الشباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . وحين تخيل إليهم آمالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ، وإني لجالس في بيتي لم أذهب إلى الأزهر ، وما كان أكثر تخلفي عن الأزهر في هذه الأيام ، وانقطعت إلى خادمي الأسود الصغير ، يقرأ لي قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصالح معوجها في نفسي . يقرأ لي مرة في ديوان من الشعر ، ومرة في كتاب من كتب التاريخ ، وحيناً في قصة من قصص العامة . وإني لجالس ذات يوم إلى خادمي الأسود وهو يقرأ علي ديوان البحتری ، وإذا الباب يطرق طرقةً عنيفاً ، وإذا صاحبي يدخل وكأنه العاصفة ، وإذا هو يدعوني في صوت سريع إلى أن أنهض فألبس ثيابي

وأخرج معه ، وأن أسرع ، فان العربية تنتظرنا . وأحاول أن أسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربية التي تنتظرنا ، وإلى أين يريد أن يذهب بنا ، ولكنه لا يجيب ، وإنما يستعجلني ويلح في الاستعجال ، حتى إذا تركته وذهبت لألبس ثيابي سمعته وهو يذهب ويحيىء كالجنون ، ويتغنى في صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم أخرج له فيخطفني خطأً . ويعدوني عدواً حتى يلتقيني في العربية إلقاءً ، ثم يأمر السائق أن يمضي إلى مكان كذا حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئني بأن الجامعة قد أعلنت في الصحف أنها سترسل طلاباً إلى أوروبا ، وقد حددت موعد الامتحان وأنه قد أقبل إلى ، لألقى فلاناً وفلاناً ، وكلهم من أعضاء مجلس الجامعة ويجب أن أوصيهم به خيراً . فهو واثق بأنه سيجوز الامتحان على أحسن حال ، ولكنه يخشى أن يغلبه على الفوز بالبعثة أولئك الشبان الذين يتوسط لهم أصحاب الجاه .

وما دمت يا سيدي تعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً من أصحاب الجاه وأعضاء الجامعة فليس لك بد من أن تتحدث إليهم ، ومن أن تتحدث إليهم اليوم ، ومن أن تتحدث إليهم أملي . لهذا كله تركت عملي ، ولهذا كله استأجرت هذه العربية ، ولهذا كله استعجلتك هذا الاستعجال ، وما هي إلا أسابيع حتى تم لصاحبي ما كان يريد ، وأصبح عضواً في بعثة الجامعة وأخذ يتهيأ للرحلة إلى باريس .

٧

يونيو في

ليتني لم أسمع لك أيها الصديق ، فقد كنت أؤثر أن أرتحل إلى فرنسا دون أن أذهب إلى ريفنا الحزين لأرى أبوي وأسرتي ولأرى قريتنا ، ولأملأ نفسي من هذه المشاهد الجميلة التي نشأت فيها ، وكنت أرى أني سأجد في هذه الرحلة القصيرة إلى الريف آلاماً يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شيء . وأنا أكره الوداع وأرى في السفر كما يقول بعض الشعراء من الفرنج نوعاً من الموت ، ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيراً على علم به ، وانتظار له ، وإشفاق منه . وإنما أؤثر أن يفاجئني مفاجأة ، وأن يختطفني اختطافاً ، وأن أخرج من الحياة جاهلاً بخروجه منها كما أقبلت على الحياة جاهلاً بإقبالي عليها .

لقد كنت شديد التردد في الذهاب إلى الريف ، أحسن من نفسي ضعفاً شديداً عن احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتي في القاهرة بعيداً عنهما إلا كارهين ، فكيف بهما إذا علما أنني لن أقيم في القاهرة . ولن تكون بينهما و بيني ساعات ، ولكني سأعبر البحر الملح العريض إلى بلاد نائية لا تحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات ، وإنما تحسب بالأيام . لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتي في القاهرة ،

هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها كما نعيش ،
والتي يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح في وقت واحد ، والتي يجرى
في شوارعها الترام والتي يكثر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتي يخرج
الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود إليه . فكيف بهما حين يعلمان
أنى سأقيم في ذلك البلد البعيد الغريب الذي لا صلة بينه وبيننا
في لون من ألوان حياتنا المعروفة . والذي لا يعلمان من أمره إلا أنه
بلد الفتنة والعبث ، وموطن اللهو والمجون . أليس إليه يقصد السراة وكبار
الأغنياء والمترفين من سادات الريف إذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة
من الذهب ، فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت
أيديهم من كل شيء ، وهم يقضون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق
فيه ما تشيب له الأطفال ، وترتاع له نفوس الرجال . لقد كنت أقدر هذا
كله حين كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبرح الأرض ، ولكنك
لا زلت تلح على وتذكرنى وتشير في نفسى من العواطف والذكريات ، حتى
استحييت منك ومن أبوى ومن الناس ومن نفسى أيضاً ، ورأيت أنى
لا أستطيع أن أفارق مصر ، دون أن أرى هذين الشيخين . فمن يدرى !
لعلى أذهب فلا أعود ، ومن يدرى ! لعلى أعود فلا ألقاها .

هنالك رحلت إلى الريف وليتنى لم أفعل ، فلم أكن أظن أنى سألقى
في هذا الريف ما لقيت من حزن لاذع وألم ممض وبأس لا صبر معه
ولا احتمال له .

لا أصف لك جزع أمى ولا سخط أبى ، فحسبك أن تعلم أن أمى لا تصيب من الطعام إلا ما يقيم الأود ، وهى لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل . وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً وأنها لا تمسك الدموع ، وإنما ترسلها إرسالاً حتى تنقطع ، وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذى كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والفائبات . وهى تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا فى الجامعة ، وهى تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون إليه ، وهى تلعن المدارس وهذا التمدن الذى علم مصر فتح المدارس ، وهى تأسف أشد الأسف وتندم أقسى الندم كلما ذكرت ذلك اليوم الذى أراد فيه أبى أن يقلد أباك ، فأخرجنى من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك ، وأرسلنى معهم إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الإقليم ، هنالك حيث طرحت زى الريف واتخذت هذا الزى الأوربى ، ووضعت على رأسى هذا الغطاء البغيض .

ولست أخفى عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول ، فهى التى ألفت فى روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال فى هذه المدارس ، وأن يلبسوا الطربوش ، وأن يلوا ألسنتهم بالرطانة الأجنبية ، وأن يصبحوا موظفين . وهى لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف إلى الكتاب حتى نحفظ القرآن ، ونحسن القراءة والكتابة ، ومن الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصل شيئاً من علوم

الدين . ثم نعود إلى القرية حيث الجد والعمل ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الجاه وبعد الصوت .

لا أطيل عليك فأنى نائرة إذا أصبحت ، نائرة إذا أختت ، نائرة إذا أقبل المساء ، نائرة إذا جنها الليل ، نائرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً وبكاء . فأما أبى فمتنكر متمنر ، ينذر فيلح في النذير ، ويتلطف فيلح في التلطف ، فإذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف ، خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعاً ، وجعل حياتهم لا تطاق ، وأقسم جهد إيمانه ليقطعن ما بينه وبينى من سبب وليعيشن منذ الآن كأنى لم أكن له ابناً . ولو أنى استمعت لنفسى أيها الصديق لما أقمت في هذا الجحيم إلا يوماً أو يومين ، ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذى تفلع فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذى ملك على نفسى كلها وقلبي كله

ولكن كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيما هما فيه ، ولما أبذل ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بعض الشيء ، ولأردهما إلى بعض الطمأنينة ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين . وإنى لأجد فى ذلك ما وسعنى الجد ، وأحتال لذلك ما واتتنى الحيلة ، وأستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم ، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور ، وبما بين حياتنا فى هذا العصر وحياة آبائنا قبل أن نولد أو حين كنا أطفالاً ، وما أظن أنى سأبلغ وحدى أو بمعونة هؤلاء الناس شيئاً ،

فأمرى مستيقنة بأني إن سافرت فقد فقدتني ، وأبي مقتنع بأني إن سافرت
فقد قطعت بينه وبينى كل سبب .

في ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كئيب النفس ، شديد الحرج ،
ممتلئاً بهذا العجز الموثس عن رضا هذين الشيخين ، كارهاً أشد الكره
للدار والقرية ومن فيها ، فخرجت أهيم في الريف أتمس راحة النفس في
تعب الجسم ، ولست أزعج أنى خرجت أريد وجهة بعينها ، أو أسمى إلى
غاية معروفة ، وإنما هو المشى ، والإبعاد فيه ، والخلوة إلى النفس ، والفرار
من لوم اللأئمين ، وعذل العاذلين . وإلحاح الملحنيين . وإني لأمضى أمامي
لا أحفل بشيء ، ولا أؤف عند شيء ، وأكبر الظن أن كثيراً من الناس
الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقوني خيوني ، وما أشك في أنهم قد
أنكروني لأنى لم أسمع منهم ، ولم أورد عليهم تحيتهم ، ولعل كثيراً منهم قد
تحدث إلى نفسه بأن هذا أول الشر ، وبأدرة الفساد ، إنه ليعرض عنا ،
ويكبر علينا ، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به إذا ذهب إليها
وعاد منها .

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم ، ولا أحسست مكانهم منى ، إنما
كنت مشغولاً بنفسى عنهم وعن كل شيء . وإني لك لتعلم أنى كثيراً ما حدثتك
عن كفى بالخروج إلى الريف . والتروض في الحقول أثناء هذا الفصل من
العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشتد النشاط ، وحين تنتشر في ريفنا
هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبدلات بحكم الفقر ، يطوفن بالحقول

ويلتمسن أقاتهن في التقاط ما يسقط من الحب . إنك لتعلم كلفى بالخروج في هذا الفصل ، وأنى أجد لذة حارة حادة في الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الجمود والجمود . ويفنون في طبيعتهم هذه ، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج ، لهم جد الأداة وصدقها واستقامتها وصرها وإعراضها عن الشكوى ، وبعدها عن الملل والسأم . فما رأيك في أن هذا الجمال الذي يفتنني ويملك على قلبي ويحملني على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام ، لم يصل إلى قلبي ، ولم ينته إلى نفسي في هذا اليوم . فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات ، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤم العمل نشاطاً ومرحاً وبقيناً وثقة وإيماناً . إنما مضيت أمامي لا أوى على شيء ، كأنما تدفعني قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبينها ولم أنتبه لها ، إلا فجأة حين رأيتني واقفاً جامداً وحين أنكرت من نفسي هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولى كأنى أقفت من نوم عميق ، فما يروعنى إلا أن أرانى واقفاً أستظل بشجرات التوت عند الإبراهيمية ، هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن إذاً قد خرجت من دارنا ضيقاً بها وبمن فيها ، ولم أكن إذاً قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها ، ولم أكن إذاً قد همت في الريف التماساً للخلاوة إلى نفسي والراحة مما كنت أجد من عناء ، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت في الريف أمامي لأنى

لم أكن أجد بداً من أن أزور هذه المدينة التي أنفتت فيها أحسن أيام الصبي ، ومن أن ألم بهذه الربوع التي ذقت فيها أطيب ما ذقت في الحياة من لذة قوية نقية طاهرة بريئة من كل إثم .

إذا فلتعد إلى نفسي النافرة ، وليثب إلى قلبي الجامح ، وليراجعني هذا العقل المضطرب المشرذم ، لأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من قوة الحس والعقل والشعور ، لأستمتع بالحياة القوية الخصبية في هذه المدينة الحبيبة إلى نفسي ، الكريمة على قلبي ، ولأخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع ، أ جعله زاداً لي في هذه الرحلة البعيدة التي أنا مقبل عليها ، وأ جعله ذخراً لي في هذه الإقامة الطويلة التي سأقيمها في ذلك البلد الغريب .

لأملأ إذا عيني مما سأرى ، ولأملأ إذا أذني مما سأسمع ولأملأ إذا نفسي وقلبي مما سأجد ، وإني لأنظر فلا أكاد أرى إلا الإبراهيمية تمتد أمامي ويسعى فيها الماء هادئاً نحو السعي ، وإلاهؤلاء الناس يسعون متفرقين ، منهم المقبل من الغرب يحمل إلى المدينة ما يبعث إليها الريف من العروض ، ومنهم الذاهب إلى الغرب يحمل إلى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة . بعضهم راجل ، وبعضهم راكب ، وقليل منهم يتحدث إلى رفيق ، وكثير منهم يفرق في الصمت كأنما يفكر فيما وراءه أو فيما أمامه . وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد ، وامرأة أو فتاة تأتي من حين إلى حين ، فتغمس جرتها في الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة في هذا الصمت الذي يحجب

نفوس النساء ، ويستمر ما يجول فيها من خواطر يود الرجل لو يعرف منها بعض الشيء . وإني لأمد سمعي فلا أسمع إلا هذه الأصوات المختلفة التي تأتيني من هذه الحركات كلها ، وهذا اللحن اللحو المتصل المشابه الذي يأتيني من هذه الأطيوار وقد استقرت على العصون . وكأنها وجدت لذة الراحة وأحست رقة النسيم واستمتعت بخفض العيش بين هذه الأوراق النظرة ، فهي تتغنى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة . وإني لأمد نفسي كلها فلا أحس إلا حياة هادئة قوية نقية تأتيني من كل وجه ، من الحركات التي أرى ، ومن الأصوات التي أسمع ، ومن هذا النسيم الخفيف الذي يمسي مساً رقيقاً فيرد إلى النشاط ويحيي في نفسي الأمل ، ويلقي عنى كل ثقل ويكاد يهيني جناحين ويكاد يجعلني طائراً بين هذه الطير . ويكاد يرسل صوتي كما أرسل صوتها بالغناء . وأنا أقم هنا في ظل شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة وأستمع فيها بالحياة وأذكرك أيها الصديق . ثم أتتني للمضى أمضى ولأنتفض على المدينة من هذا المنحدر ، فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً ، كما ينتفض النسر . وهأنذا أمضى وأقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القنطرة ، فأتنا أتذكرها ؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسيره على الشاطئ الجنوبي حتى إذا بلغت ذلك المنحدر الذي تعرفه ، ودعتها لحظة وانحدرت إلى المدينة لأمر بهذه الأماكن التي كنا نألفها ، بالدكان وبيت أم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضى حتى أبلغ شارعكم ولعلى أقف لحظة عند أوله فأحدث إلى بمة . أتذكر بمة ؟ تلك التي كانت

تسرف في النوم وتسرف في الغطيظ ويسمع الناس غطيظها في أكثر ساعات النهار ، وفي كل ساعات الليل ، إذا مروا أمام بيتها الصغير . من يدرى ! لعلى كنت أوقف لحظة عند هذا البيت فأعبث بصاحبته وأسألها عن أصناف الجبن الذى تبيعه وجه النهار . ثم ألو لحظة بابنها الأبله ذى الرأس الغريب ، أتذكره ؟ لقد كنا نسقيه أبا الرءوس ، إنه لا يتكلم ولا يسمع ، ولا يكاد يعقل ، من يدرى ! لعلى كنت ألو به لحظة ثم ألقى في يده أويده أمه بعض النقد .

ثم أمضى في شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التى كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل ، وأقف عند بيتكم فى هذا المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التى كثيراً ما لعبنا فى ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحقائق والحقول . ومن يدرى ! لعلى أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر إخوتك ، فكثيراً ما جلسنا عليها وكثيراً ما لعبنا الطاب . ومن يدرى ! لعل الذى ذكرى أن تملأ نفسى وقلبى ، وأن تنسينى نفسها وأن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها ، ولعلى أعتقد أنى قد أقبلت لأزورك ، ولعلى أطرق الباب وأنتظر أن أسمع من ورائه صوتاً معروفاً مألوفاً يسأل عن الطارق . وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصاً معروفاً مألوفاً يرحب بى ويدعونى إلى الدخول . ثم أنظر فأرى شخصاً لم أعرفه ولم آلفه يسألنى من أنا وماذا أريد ، فأثوب إلى نفسى وأستأنف رحلتى وقد مثلت فصلاً من

حياتي الأولى ووجدت في التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم أستأنف رحلتي فأمضى أمامي نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذي كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضى ساعات على شاطئ القناة أو في حديقة جرجس افندي عن شمالنا ، أو في حديقة المعلم عن يميننا . فأرقى في هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها في طريقى إلى المدينة .

وكنت أقدر هذا كله وأقدم لنفسى المتاع بهذا كله وأنا أمضى أمامي ملتمساً مخرج القناة من الإبراهيمية . ولكن ماذا أرى ؟ وأين أنا ؟ وأين القناة ؟ إنى لأنظر فاذا الإبراهيمية تمتد وتمتد ويجرى فيها الماء هادئاً يحمل الحياة والخصب ، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام ، فليس فيه عوج وليست فيه فرجة يخرج منها الماء . أين القناة ؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضى غير بعيد ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات . ثم تمضى غير بعيد وتمضى معها فنبلغ هذا المنحدر الذى كان ينتهى بنا إلى المدينة . أين القناة ؟ إنى لا أراها ولا أجد لها أثراً ، وإنما أرى شوارع وأرى دوراً تقوم فى هذه الشوارع ، وأرى معالم لم آلفها ، ومناظر لم أرها من قبل . أترانى أخطأت المدينة ؟ ومع ذلك فأنا أعرفها كما أعرف نفسى ، وأستطيع أن أمشى فيها وأهتدى إلى مسالكها المختلفة دون أن أفتح عيني كما كنت تمشى فيها أنت أيها الصديق لا تحتاج إلى أن ترى ولا إلى من يهديك الطريق . أين القناة ؟ لقد سلكت إلى

المدينة الطريق التي سلكتها ألف مرة ومرة ، فلست أشك في أنى قد بلغتها وبلغتها هي دون غيرها من المدن ، فماذا أصابها بعدنا ، وأين ذهب القناة ؟ إنى لأريد أن أسأل فأجد حياء في نفسى من السؤال ، ولكنى أطيل الوقوف وأطيل النظر عن يمين وشمال ، وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يخيل إلى وإلى من كان يرانى من الناس أنى أبله قد فقدت الصواب . ثم لا أملك نفسى ، وإذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة وإذا أنا أسمع ويا شر ما أسمع . إنى قد بلغت المدينة وإن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وإن معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا أسمع ! معمل السكر قد هدم ، وماذا بقي إذاً في المدينة ؟ أو ماذا جثت أرى في المدينة ! ماتت القناة ، وهدم معمل السكر ! وغيرت المعالم ! وانتقل أكثر من كنا نعرف في المدينة من الناس .

يا للحزن والأسى ، يا للوعة والحسرة ، يا لليأس والقنوط . أيبالغ العنف بالزمان أن يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس في أعوام قصار . لقد جد جيل وجيل في إقامة معمل السكر وإقامة ما حوله من الدور ، بل من القرى . لقد عاش جيل وجيل ، بهذا المعمل ولهذا المعمل . لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة . فكل هذا الجهد ، وكل هذا العناء ، وكل هذه الحياة ، وكل هذه الذكرى ، وكل ما كان على شاطئ القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم ، ومن حب وبغض ، ومن أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع وإخلاص ، كل هذا

يذهب في أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة ، كأن شيئاً من هذا لم يكن ، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة في هذه الأرض من العواطف ، وكأن شفة لم تبتسم لما أنبتته هذه الأرض من مناظر الجمال ، وكأن عيناً لم تبك لما شهدته هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى .
يا للحزن اللاذع ، ويا للألم الممض ، ويا لليأس المهلك للنفوس ! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق ، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذي كان ينطلق فيها فرحاً مرحاً هادئاً وادعاً مستبشراً يرسل البشر من حوله جميلاً يثير الجمال على جانبيه . مات هذا الإله الشاب ودفن في مجراه أو طرد هذا الإله الشاب ورد عن مجراه وفنى في الابراهيمية .
فأصبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً ، لا يثير في نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجرى ألسنتهم بالحديث ، نسيه الناس ، ونسى هو الناس ، بل نسى نفسه أيضاً . إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم في المعابد ، فإذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً ، فقد هدم معبد هذا الإله الشاب ، وماتت القناة فمات هو أو نفى من الأرض وأصبح حديثاً كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث . أتدرى أين أكتب إليك ؟
إني أكتب إليك في مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره ، ولم يتبدل لأن المنفعة لم تأمر بتبديله ، ولأن يد الإنسان لا تكاد تجرأ على أن تمتد إليه . إني أكتب إليك عند المسجد ، عند بابه البحري ، أتذكر

هذا الباب هو الذى يدخل منه المترفون الذين لا يحتاجون إلى أن يَمروا بالمليضة لأنهم يتوضؤون في بيوتهم ، ولا أن يَمروا بالمعطس لأنهم يستحمون في بيوتهم . أتذكر هذا الباب ؟ إنه ينتهى بك إلى قلب المسجد لا إلى فناءه ولا إلى الصحن المنبسط أمامه . إنك إذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الغنى الذى بناه . أتذكر هذا الباب ؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتمفانه عن يمين وشمال ، فأنا أكتب إليك عند هذا الباب وأكتب إليك قائماً لا قاعداً . وأكتب إليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقت أمامه أجرى يدي بما تلقيه هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقي .

لقد أطلت ولكنى لم أحدثك إلا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكنى لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر فإن ما رأيت لا يستحق الحديث ، وإنما الذى يستحق الحديث هو هذه المعالم التى أقبلت زائراً لها . فلم أر منها عيناً ولا أثراً ، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروى عنها خبراً . هذه المعالم التى جئت لأراها والتى لم أرها ، هى التى تستحق الحديث . لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه . ولن أتمه الآن . فقد آن لى أن أروح إلى قريتنا حيث ينتظرني الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه ، فما ينبغى أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيرى من الذين نشأوا في المدينة يحزنهم

أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس .

وأكتب إليك الآن من قريتنا وقد بلغتنا مع الليل فألهاني ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسي من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت للهوت كما لهوت ، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ إليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلاً ولا روية وإنما اندفعوا فيه اندفاعاً . افتقدوني وجه النهار فلم يجدوني وانتظروني حتى انتصف النهار ، وهم يظنون أني قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من التزهة والتماس التروض والعبث في الحقول . ولكنني لم أعد مع الظهر ، ولم أعد مع العصر ، فلم يشك أحد في أني لم أخرج لتزهة ولا لتروض وإنما فررت منهم فراراً ، وعدت إلى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل .

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذي يملؤه السخط والغضب . وتملؤه الرقة والرحمة في وقت واحد . لقد كنت ابناً عاقماً يرتحل دون أن يودع أبويه ، فكنت خليقاً أن أثير السخط والغضب والموجدة ، ولكنني كنت ابناً يرتحل إلى بلد نازح ، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان ، وكانت غريبة هذه الدموع التي كانت تنحدر من عيني أمي ، لا يعرف الناس أمي دموع الغيظ والحنق أم هي دموع الوجد والحنين . وكانت غريبة هذه الألفاظ التي كانت تنطلق متصلة على

لسان أبى ، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه
وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزناً لأن ابنه
قد سافر إلى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود .

ثم كانت غريبة هذه العواطف التي ثارت في نفسى حين بلغت الدار
فرايت الشيخين راضيين يظهران السخط ومسرورين يتكلمان الحزن ،
ومبتهجين يتصنعان الاكتئاب . ففي قلبهما إذاً عطف على . وهذا
الغضب الذى أراه وتأذى له ليس إلا مظهراً من مظاهر هذا العطف ،
ولوناً من ألوان هذا الحب ، وصورة من صور هذا الحنان ، وإذاً فسأسافر
إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذى سيصحبى فى هذا السفر هو
الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة . ولعل خروجى إلى
المدينة لم يكن شراً كله وإنما كان فيه بعض الخير ، على كثرة ما أثار فى
نفسى من الآلام الملحة الباقية ، فالأول مرة عدت إلى القرية استطعت
أن أظفر من أبوى بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف ،
كأن عودتى إليهما من الرحلة القصيرة التي انقضت قد أهتمها عن تلك
الرحلة الطويلة التي لم تبتدىء بعد . وكان أكثر حديثنا عن المدينة التي
زرتها ، وعمّا تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشيخان يتحدثان
إلى فى ذلك كله حديثاً هادئاً مطمئناً يعشاه حزن خفيف وتتردد فيه
ذكريات مؤثرة ، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن
والأمل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت ،

ومتمة في الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسى
لهذه الحياة المنقضية وهذه العهود الماضية وهذه الذكريات التي سبق ما بقيت .
نعم كانت أحاديثها متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في
نفسى والذي يجب أن تقيم مثله في نفسك لذلك العهد الذى مضى إلى غير
رجعة ومات إلى غير نشور . ولا بد من أن أتم لك ما تم في نفسى من
تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذى ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة
كما تتردد هذه الطير التي تألف الظلمة في البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شيء مما كنت
تعرفه وتآلفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل شيء . فأما حديقة المعلم
فستطيع أن تلتمسها في نفسك واجتهد إن استطعت أن تستحضر ما بقي
من صورتها وأن تثبته ، فإنى أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث
بالأصل . وأما بيتكم فلن تراه إلا في الخيال يقظان أو في الحلم نائماً .
وكذلك هذه البيوت الحسان التي كانت تقوم على شاطئ القناة والتي
كنت تحب أن تدخل بعضها لتتحدث إلى محمود وعمان ، ولتسمع اعزيزة
وأمينة . وقد مضى أهلك إلى أقصى الصعيد ، وهبط أهل اعزيزة وأمينة
إلى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم إن شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون
في بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسنين قد انتقل إلى السودان بعد أن
عصف الموت ببيته فأذوى منه غصوناً وأذبل زهرات . ولكنك تجهل أن

« حسن كوزو » قد رحل إلى عزبة « المكسرين » وأنت لا تعرف عزبة « المكسرين » ، فهي قطعة من الأرض منحتها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا عن العمل . فهم يقضون فيها ما بقي لهم من حياة .

فأما سيدنا فقد ارتحل إلى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذي لم يكن يعرف السكون . واستأنفت زوجته الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذي كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر . وفقدت عالية أم غريب زوجها الضير ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا يعلم أحد . وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة ، ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته . ولقيت زنوبة من دهرها شراً ونكراً . فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سراً ، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة . ثم مضى الدهر في تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها ، وعاشت أعواماً لا ترى النور ، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذي لا يكمل الصفو فيه .

أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت ؟ فقد هدم الكتاب هدماً ، وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس .

نعم هدم الكتاب هدماً ، وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر ، ترك في نفسي من الآثار المؤلمة والندوب التي سبقت ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم . فما تزال معالم الكتاب باقية ، على

نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتّاب الآن طلل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من آثاره إلى الآن بقية مؤذبة حقاً . لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه ، ونزع منها ذلك الخط الحديدي الضئيل الذي كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والرمل والحصى إذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذي كان يؤذى المدينة في كل عام .

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن يمين الكتاب وشماله . وعملت معاول الهدم في الكتاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور ، فالمنظرة التي كانت تقوم أمام الكتاب والتي كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب ، وأصبحت طلالاً مثله . والبيت الذي كان يقوم وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب وانتثرت هذه الأطلال في هذا الفضاء انتشاراً محزناً مؤسّساً ، ولكن مكان الكتاب بينها يثير في النفوس أسى غريباً ولوعة محرقة حقاً . إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التي كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرءوا الحزب ، وإن عتبته ما زالت قائمة ولم تمح جدرانها كلها محوّاً ، وإنما بقي منها شيء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع أن تتبين مواضع المقاعد الخشبية التي كانت مسندة إلى هذه الجدران والتي كان يجلس سيدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن

شمالك إذا دخلت ، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر ، ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل إلى قش لا يكاد يتصل ، وحين يوجد بعض الأغنياء بما يقوم مقامها .

قل ما شئت وأعجب بالشعر القديم ما أحببت واحفظ من وقوف الشعراء على الأطلال وبكائهم على الديار وذكركم للظاعنين ما استطعت أن تحفظ ، فسيظل هذا كله في نفسك كلاماً أجوف لا يحتوي شيئاً ولا يدل على شيء ، حتى تقف موقفاً كالذي وقفته منذ حين بين هذه الأطلال عن يمين وشمال ، وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة القوية الغنية الخصبية التي كانت تملؤها الحركة والنشاط ، وتضطرب فيها الأماني والآمال ، وتختصر جيلاً مضى وتنبئ عن جيل مقبل ، فذهبت هباء وتفرقت في الأرض ، ولم يبق منها في هذا المكان إلا صدى لا يحسه الناس جميعاً ، ولا يقدررون وجوده ، وإنما يحسه مثلك ومثلي من الذين اشتركوا في هذه الحياة وتأثروا بها وملأوا من صورها النفوس والقلوب . لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجعلت أنظر حولي فلا أرى إلا هذه الأحجار المنتثره وأمد أذني فلا أسمع إلا هذا الصدى الذي كان يضطرب في الفضاء ، ولكنني مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعاً ، وقد أخذوا مجالسهم في الكتاب ، هذا يقرأ ، وهذا يسمع ، وهذا يلغو ، وهذا يكتب ، وهذا يلعب ، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد فيه هذا اللفظ الذي كان يسمع من مكان

بعيد فيدل سامعه على مكان الكتاب ، ولولا أنى مازلت محتفظاً ببقية من إرادة ، وفضل من القدرة على ضبط النفس لجنت ولتحدثت إلى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم يجرون ويلعبون ، ولشاركتهم فى الجرى واللعب . لا أخفى عليك أنى ملكت نفسى فلم يذهب بها الجنون ، ولكنى لم أملك عيني ، ففاضت منهما الدموع . هممت أن أمضى ولكنى لم أسلك الطريق العامة حيث كان يمتد الخط الحديدي ، وإنما هممت أن أمضى نحو بيت المأمور ، فما راعنى إلا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح ، وإذا هما قائمتان كهدهما تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل ، وتحملان ما تعودتا حمله من التمر الذى لم يتم نضجه بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه فنعبث به ، ثم كنا نلتقطه فنأكله إذا قارب النضج ، ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه إذا تم نضجه ، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الأطلال المهتمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان من بهجة ، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما نجدان الوحشة فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات بعد حياة .

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنى قضيت مثلها ، ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكري وألم الحسرة ما لا أعرف أنى ذقت مثله قط . وإنى لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنجهما حباً ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم فى

الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد إلى نخلتى حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تعنى بهما من الشعراء ! . لقد أجهدت نفسك في البحث ، ولقد كنت تعجب بشعر مطيع في هاتين النخلتين ، ولقد كتبت كلاماً كثيراً عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ، ولقد كنت راضياً عن نفسك لأن الأستاذ كان راضياً عنك ، ولكن ماذا تركت نخلتنا مطيع في نفسك من أثر ، وماذا بعثنا في قلبك من عاطفة ؟ إنما هو كلام يروى ثم يثير في أنفسكم العجب والتهيب والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق . أسرع أيها الصديق إلى مدينتنا فألم بها يوماً أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب محواً ، وقبل أن تجتث النخلتان اجتثاثاً ، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة ، على هذه القبور العزيزة التي دفنا فيها الصبي ، وما كان يماؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط . أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل بظلهما ثم أشد شعر مطيع ، فستفهمه وستذوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر به مطيع نفسه .

ليت الأيام تتيح لى أن أحقق أمنية تضطرب في نفسى فأجمع نقرأ من رفاقنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ما حوله من الأطلال وإلى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحكي عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة .
لست أدري أقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به ، وتشفق من طوله ، وتكره أن تنفق في قراءته من وقتك ما أنت في حاجة إليه ، لتستعد

لدرس من الدروس ، أو لتقرأ في كتاب من الكتب ، أو لتحفظ من بعض
الدواوين ، ولكني لم أكن أستطيع أن أكتب إليك أقصر مما كتبت ،
ولولا إشفاقى عليك ورتأى لك لكتبت إليك أطول مما كتبت ، فقد تقدم
الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شيء ساكن من حولى إلا هذه الأصوات
التي تبلغنى من حين إلى حين ، أصوات الخفراء حين يتنادون أو أصوات
الديكة ، فتحسب أن الفجر قد لاح ، فتصدح بنداؤها العذب لتلقاه بالتحية
ولتنبيه الناس بمطلعه . ثم تعلم بعد ذلك أنها قد خدعت ، أو هي لا تعلم
شيئاً وإنما يمضى بها النوم في أواجه المتصلة المتلازمة فتعود إلى الصمت
وتفرق فيه . ولعلى أجرد نفسى من خواطرها ، وأسألها مما حولها سلاً ،
وأعلقها في هذا السكون تعليقاً ، فأسمع أصداء تترد ويدعو بعضها بعضاً ويحيب
بعضها بعضاً ، وتصور لى ذلك الصدى الذى كفت أسمعه فى الكتاب ثم أريد
أن أحلل هذه الأصداء وأردها إلى أصولها ، وأتخذ لها أشخاصاً أحياء ،
فيخيل إلى أنها نفوس الأجيال التي سكنت قريتنا على اتصال الزمن ،
ويخيل إلى أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هي وحدها التي تزول ،
وهي وحدها التي تتغير ، وهي وحدها التي ترح الأرض . فأما نفوس الناس
والحيوان والأشياء فمتصلة بالأرض لا ترحها ، مضطربة في الجو لا تفارقه
ولا تزول عنه ، وإنما هي تملؤه حياة لا يشعر بها الأحياء إلا إذا سلوا أنفسهم
من المادة سلاً ، وعلقوها في سكون الليل تعليقاً . لقد تقدم الليل حتى جاوز
نصفه وكاد يبلغ ثلثيه ، ولقد سكن من حولى كل شيء ، وأنا لا أسمع دعوة النوم

ولا أحس مقدمه ، ولا أرغب فيه ، وإنما أنا حريص كل الحرص على أن أبقى مع هذه الذكريات أتحدث إليها . وأسمع منها حين أتخذها موضوعاً لما أحمل هذا الكتاب إليك من حديث ، وما أظن أن الفجر سيلقاني نائماً بل أنا واثق بأنه سيلقاني يقظان ، ولولا أن يراع أهل الدار وأن تظن بي الظنون لخرجت لاستقباله في الفضاء فأنا أكره أن يدخل عليّ نوره من النافذة ، كأنه اللص ، وأحب أن ألقاه في الفضاء الطلق ، فأملأ به نفسي وقلبي ، وألتبس في ضوئه الهادئ الحلو هدوءاً لهذه الثورة التي لا أستطيع أن أكبح جماحها ، ولا أن أنتهي بها إلى السكون .

يا للحزن ويا للآسى ! يا للوعة ويا للحسرة ! ويا لليأس ويا للقنوط ! لقد أقبلت على الريف وكنت أظن أني سأملأ عيني وأذني ونفسي وقلبي بما أحببت وبما ألفت ، وأنى سأحمل هذا كله إلى حيث أريد أن أقيم وراء البحر ، فلم أجد شيئاً وهأنذا سأعود إليك بعد أيام . ثم أرحل إلى مصر بعد أسابيع لا أحمل في نفسي إلا أطلالا متهدمة ، ونخلتين قائمتين صاممتين تجدان الوحشة ، وتبعثانها من حولهما ، ما أكثر ما كنت أريد وما أقل ما وجدت وما أكثر ما يعيث بنا من الآمال .

تقبل تحية صديقك اليأس .

وأنا أعترف أني تلقيت هذا الذي هو أشبه بالسُّر منه بالرسالة في شيء من الخوف والإشفاق من طوله ، ولكنني تعودت من صديقي طول الحديث

واختلافه وكثرة الافتنان فيه ، فأبقيته يوماً كاملاً لم أقرأه ، ولم أعرف ما فيه حتى فرغت له آخر النهار فقرأته ، ولكنى لم أحس له من الأثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته في هذه الأيام . وكأن الأمد بين صديقي وبينى كان بعيداً أشد البعد ، فقد كنت أقدر الذكرى وأنس إليها وأحب التحدث عن العهود القديمة ، ولكنى لم أكن أكلف بهذه العهود ولا أحفل ولا آسى عليها .

ولعلى كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخرًا غير قليل ، فقد كنت مفتوناً بحياتى فى القاهرة راضياً عما كنت أتلقاه كل يوم من جديد الأمر ، مبتهجاً بما كانت تفتح له نفسى كل ساعة من العلم . وكان هذا النشاط العقلى يبهرنى ، ويسحرنى ويدفعنى إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن يكون سكرًا متصلًا . وكان تذكر العهود القديمة يؤذنى لأنه يخرجنى من هذه الحياة اللذيذة بعض الشيء ، ويردنى إلى تلك الحياة التى طالما ضقت بها أيام كنت صبياً ناشئاً فى الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ، ولم أحفل بالخط الحديدى ولا بانتزاعه ، ولم أكرث للكتّاب ولم أعرف للنخلتين خطراً . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد فى الكتاب ولا فى النخلتين شعراً ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة ولا عن الخط الحديدى ، ولا عن معمل السكر . والله عز وجل قادر على أن يغفر لى الخطيئة ويعفولى عن الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديقى من موت سيدنا بشىء من الابتسام وهز الكتفين .

أما الآن فأراني مع صديقي متمسكاً أصل القناة باحثاً عما ألفنا من الأحياء والأشياء ، حزيناً ملتماعاً بل يائساً قانطاً ، أما الآن فاني أقرأ هذا الكتاب فأسأل نفسي : أين ذهب الكتاب والنخلتان ؟ وماذا قام في ذلك المكان ، الذي قضينا فيه شطراً من حياتنا لعله خير ما أتيج لنا أن نحيا .

٨

إذا لم يكن إلا الأسنه مركباً فلا رأى للعضطر إلا ركوبها ألقى هذا البيت بصوته الغليظ ومد قافيته مداً طويلاً . وهو يضرب الأرض بعصاه ، ويلقي طربوشه على مائدة كانت أمامي ثم جلس لم يبدأني بتحية ، ولم ينتظر أن أردّها عليه ، وكأنّه اعتقد أن هذا البيت الذي ألقاه على هذا النحو خير تحية يمكنه أن يهديها إلى ، وأن دهشى لمقدمه ، وانتظارى لتفسير هذا البيت ، والإبانة عما أراد به ، خير رد عليه . وأكبر الظن أنه لم يكن يرى التحية والرد عليها إلا لوناً من تنبيه القادم إلى مقدمه وتنبه المقيم إلى أن أحداً قد أقبل عليه ، وما دام هو قد بلغ من ذلك ما كان يريد فليس عليه بأس من أن يسند عصاه ويتخفف من طربوشه ويجلس إلى المائدة التي كنت أجلس إليها مائتاً الجو بضحكه العريض كما تعود أن يفعل كلما أتى شيئاً غريباً . ثم رفع صوته بهذه الجملة التي يمتلىء بها بيتنا الصغير كله « هات الشاي يا غلام » .

ثم يستريح قليلاً من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من

حيث انتهى ، وهو إنما انتهى عند إنشاد البيت ، فيقول : والأسنة هنا يا سيدي هي هذه الزيارات التي سننطق فيها آخر النهار ، وأول الليل ، حتى إذا ملأنا آذاننا من لغو الناس ، وملأنا آذانهم من لغونا . وقلنا ما لا نعتقد ، وسمعنا من الناس ما لا يعتقدون ، وشبع بعضنا من الكذب على بعض ، انصرفنا إلى خلوتنا تلك في أعلى الربوة ففرغنا لجدنا الذي خلقناه له ، وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل ، وأظن أنك لن تمنعني في أن نبدأ زيارتنا بشيخك الأديب ، فإنني قد أحببته منذ عرفته ، ولست أدري أيحبنى أم يبغضني ، ولكن ذلك لا يعنيني فحسبي أني أحبه ، وأنى أريد أن أراه وأن أستمع إليه ، وأنى أريد أن يكون ذلك في هذا المساء ، لأنني سأشغل منذ غد بما يصرفني عن الزيارات . واخير أن توطن نفسك على أنك ستخرج معي الآن فلا تعود إلى بيتك إلا إذا أسفر الصبح ، وغمرت الشمس مدينة القاهرة بضوئها الحار المحرق ، وإن لم يرتفع النهار . وما أحب أن تجادلني في ذلك أو أن تفكره على ، أو أن تتعلل بهذه التعللات التي لا تغني فإنني مصمم على أن يتم ما أريد مهما تكن المصاعب ، ومهما تخترع من التعللات . ولولا أني نهضت وأتيت حركة الذي يريد أن ينصرف ويترك له الغرفة وما فيها لما انقطع هذا السيل المندفع عن التدفق ، ولما كف هذا الغيث المنصب عن الانهمار . ولكنه رأني قائماً أتحوّل إلى باب الغرفة وقد رفعت يدي كأنما أريد أن أضعهما على أذني ، فأغرق في الضحك ، ثم ردني إلى مكاني وهو

يقول : « لك ما تريد فساأبلعك ريقك ، فقد يخيل إلىّ أنى منذ أقبلت لم أرحك ، ولم أرح نفسي من الكلام ، ولكن لا تلعنى في هذا ولم غلامك هذا الأسود الصغير ، فلو أنه أسرع بالشاى وشغلنى به و ببعض ما يصحبه من الطعام ، لانصرفت إليه بعض الشىء عن هذا الكلام المتصل »
ثم صمت متكرها وتعجلت خادمى فجاءه بما كان يريد ، واستطعت أن أتحدث إليه ، وأن أسمع منه كما يتحدث بعض الناس إلى بعض فى هدوء واطمئنان وشىء من الرزانة والتفكير .

ولم أشك مع ذلك فى أنه كان مضطرب النفس ، شديد الاضطراب مدفوع القلب إلى ثورة عنيفة لا يعرف منها مخرجا ولا ينتهى منها إلى قرار . فقد أخذت أتعلل عليه وأظهر كراهة الخروج ، ثم أقيم الدليل إثر الدليل على أنى إن خرجت فلا بد من أن أسرع إلى العودة لأنى لا أستطيع السهر فى هذه الليلة . كان كلما سمع منى تعلقة محاسنها محوآ ، وكلما سمع منى دليلا نقضه نقضآ ، حتى إذا أعياه ذلك وضاق بهذا التمتع الطويل ، نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع إلى الغرفة التى كان أخى قد خلا فيها إلى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعا ، ولم يكذب يجد أخى حتى أنبأه بأنه سيصطحبنى فى بعض الزيارات ثم سيقضى معى أكثر الليل أو كله فى حديث طويل ذى بال ، وخيره ضاحكا صاحبا بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا فى هذه الغرفة أمام غرفته أو هناك فى بيته البعيد على تلك الربوة مما يلي القلعة .

وكان أخی أشد الناس ضيقاً بالناس ، وأكثرهم نفوراً من الزيارة والزائرین ، وأشدهم بغضاً لهذا النوع من الحديث الطویل ذی البال ، الذی یظن أصحابه أن له خطراً ، وإنما هو وسیلة من وسائل قتل الوقت ، والانصراف عما ینبغی للطالب الجاد من درس و تحویل . فلم یکد یسمع حدیث صاحبی حتی أجابه متعجباً أن أخرجه معك متى شئت وأعدته متى أحببت ، فلست أطلب إليك ولا إلیه إلا أن تریحانی من لغوکما الذی لاحدله ، فأخى یعلم ، ولعلک تعلم أيضاً ، أنى غارق فی الاستعداد للامتحان . قال ذلك وأعرض عنه إلى کتبه فعاد إلى جدلان مبتهجاً وهو یقول : لم تبق لك حجة وإنما أنت منذ الآن ملک لى ، فلا بد مما لیس منه بد . ولم یکن بد من أن أذعن له ، وأنزل على حکمه وأطوف معه فی بعض أحياء القاهرة نزور هذا لماماً ونزور ذاك فنطیل عنده الإقامة ، وهو فی أثناء هذه الزیارات وفی أثناء الطريق التی کنا نقطعها من بیت إلى بیت ، مندفع فی مزاح لا ینقطع بصوت مرتفع كثيراً ما کان یلقت إلینا الناس ، وكثيراً ما کان یحملنى على أن ألح علیه فی أن یخفف منه بعض الشئ وعلى أن أقسم له أنى لست أصم وأنى أسمع همسه فضلاً عن حدیثه المعتدل . وأن أحتج له على أن الناس لیسوا فی حاجة ولسنا نحن فی حاجة إلى أن یشاركونا فیما نأخذ فیہ من عبث وجد . وكثيراً ما اضطر أصدقائنا الذین زرناهم إلى أن یظهروا الضیق بصوته المرتفع الذی لا یخفى شیئاً ، ولا سیمای هذا المزاح الغلیظ المسرف فی الحرية الذی یرتفع به صوته حتی یخشى أصحاب الدور أن یبلغ النوافذ وأن ینتهى إلى آذان لا ینبغى أن ینتهى إليها .

ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتى له هذا المساء ، لذيدة حقاً متعبة
حقاً ، كانت لذيدة لهذه الفنون المختلفة التى كان يطرقها فى أحاديثه المتصلة ،
ينتقل من بعضها إلى بعض فى غير تمهيد ، ولا تنبيه ولا مناسبة ، وإنما
هو الاستطراد ، والاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت ، ولا كما
أفهمه أنا ، معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التى تدعو إلى الشرح
والتفسير ، وتبيح الانتقال من موضوع إلى موضوع ، وإنما هى مناسبات
خفية كان يجدها هو ولم تكن نجدها نحن . فكان استطراده من موضوع
إلى موضوع ، أشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطئ القناة إلى شاطئها
الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبه الجسر . وكنا نجد فى استطراده
هذا ما يلهى ويضحك ويعجب ، وكنا نقدر دائماً أنه إذا وثب من
موضوع إلى موضوع أو قفز من حديث إلى حديث ، فلن يعود إلى الموضوع
الذى وثب منه ولا إلى الحديث الذى تجاوزه ، ولكنه كان يقهرنا دائماً
فلا ينسيه موضوع موضوعاً ولا يشغله حديث عن حديث ، ومن أجل هذا
استحالت اللذة التى كنا نجدها فى الاستماع له إلى تعب مضمّن للعقل ،
منهك للقوى . ويكفى أن تتصور رجلاً يسير بك أو يعدو بك فى طريق
ثم لا يلبث أن يعدل بك إلى طريق أخرى ثم لا يلبث أن يردك إلى
الطريق الأولى فيعدل بك إلى طريق ثالثة ، وهو يمضى فى ذلك جاهداً
متصل الجهد ، لا يريح ولا يستريح . فأنت واجد فى هذا لذة ، وأنت
مستقبله بالنشاط والمرح ، ولكنك لا تلبث أن يدركك الإعياء والسأم وأنت

تمنى على صاحبك أن يعفبك من هذا الاضطراب أو يمضى بك على صراط مستقيم .

وكم تمنينا وكم ألحجنا في التمنى ، ولكن عقل صاحبي كان قد ركب على هذا النحو ، فلم يكن يستطيع أن يمضى في تفكير أو روية أو حديث دون أن ينحرف يمينا أو شمالاً ثم يعود إلى طريقه الأولى ليعود إلى الانحراف عنها . ومن يدرى ! لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق أو الأمور المعقولة التي تعمل فيها عقول الناس لا تستقيم ولا تسمح بأن يستقيم التفكير فيها ، وإنما هي تنحرف وتعوج وتلتوى وتكسر العقول على أن تسيرها في الانحراف والاعوجاج والالتواء ، ولعل عقولنا نحن أوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الأداة ، فهي ترى الأشياء سهلة ميسرة ، وتسلك في التفكير طرقاً معتدلة مستقيمة وتتعب من الانحراف والالتواء ، أى من التفكير الصحيح . ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبي إذا فكر أو كتب أو تحدث . فإذا أضفت إلى هذا صوته الذي لم يكن يعرف الخفوت ولا يوجب الهمس ، وإذا أضفت إلى هذا أنه صم في هذا المساء على الأنركب عربة ولا نتخذ ترامواً ولا نستعين بأداة من أدوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لأنه قد أزمع أن نجن في هذا المساء . وكان الجنون عنده أن نهيم في الأرض حتى إذا أجهدنا المشى ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى ينتهي بنا الإعياء إلى أقصاه . أقول إذا لاحظت هذا كله ، وأضفت بعضه

إلى بعض لم تشك في أنى كنت متعباً مكدوداً حين بلغنا منزله في أعلى
الربوة مما يلي القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جدال في أنى لو ملكت
يذى ونفسى كما يقول الفرزدق لتخلفت عن مرافقته ، ولتركته في بعض
الطريق ، ولكنه قد احتاط لذلك عامداً أو غير عامد ، فأبى على أن أصطحب
غلامى الأسود الصغير ، وقال أرفق به ودعه يسترح ، ولعل أخاك أن يحتاج
إليه . وما دمت ستنفق الليل معى ، وما دمت سأردك إلى بيتك مع الضحى
فلسنا فى حاجة إلى رقيب يسمع ما نقول ، أو يحصى ما نهذى به ، وقد
لا نكون فى حاجة إلى أن نسمع غطيظه حين يطول عليه حديثنا ، ويثقل
عليه سهرنا فيأخذه نومه العميق ، ويهوى به عن كرسيه إلى الأرض
كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار فى بعض قضايا المنطق التى كنت تراها
واضحة كل الوضوح ، وكنت أراها أنا غامضة كل الغموض .

واستطاع على هذا النحو أن يخرجنى من غير خادمى ، وأن يحتكم فى
أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد . حتى إذا انتهى بى إلى داره نحو
منتصف الليل كنت محطماً أو كالحطم ، وكنت لا أتمنى إلا مجلساً أستريح
إليه من هذا العناء ، وكنت واثقاً أنى لن أبلغ غرفته الحرام ولن أجلس
على ذلك المجلس من الخشب تغطيه الوسائد . حتى أنثنى على أحد جنبى
وأستسلم للنوم .

ولكنه لم يمكنى حتى من هذا ، فما كاد بابه يفتح لنا ، وما كادت
خادمتة تهدينا بمصباحها الضئيل إلى غرفته الحرام حتى أقبلت بما عندها .

وليتها لم تفعل . فقد أقبلت بإبريق الشاي ومن حوله قطع من فطير الريف . وأقبل هو على الشاي يصبه في الأكواب وهو يقول في صوت ما كر : هذا هو الشاي الذي تعتمدون عليه في إنفاق الليالي البيض حين يطلب إليكم الدرس ألا تناموا . والدرس ياسيدى يطلب إلينا في هذه الليلة ألا ننام ، فاشرب من هذا الشاي واستعن عليه بهذا الفطير حتى إذا أخذت من الراحة والغذاء والرى بنصيب أخذنا في درسنا المعضل العويص . وقد كنت متعباً مكدوداً ولكنى كنت جائعاً ظمآن أيضاً . فلم أجد قدرة على الامتناع عن أخذ ما كان يقدم إلى من طعامه الثقيل ، وشرابه الذائد للنوم . وأقبل هو على ما حملت الفتاة ، فأصاب منه في غير رفق ولا اقتصاد ، حتى إذا أحس أن معدته قد استقرت في جوفه ، وأن أعصابه قد تنهت بعد الخمود ، أخذ في حديثه الذي كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التي كانت تلتوى بنا وتحملنا ألوان العناء منذ العصر . وكان انتهاؤه إلى الأخذ في هذا الحديث بعد الجهد الذي لقينا ، والمشقة التي احتملنا ساعات متصلة ، أشبه شيء بخلاص الأم بعد أن ثقل عليها الوضع ، وابتلاها بالآلام المضنية المنهكة . وكان صوته وهو يأخذ في هذا الحديث هادئاً يحاول الرقة وتجري فيه عذوبة مؤلمة بعض الشيء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض أو يدخل فيه . قال : أتعلم فيم أرتكك الليلة وكلفتك ما كلفتك من هذه الأهوال التي لم تكن تنتظرها ولا تحب أن تلقاها ؟ قلت : لا وإني لأنتظر أن أعلم ذلك منذ عزمت على في الخروج

معك ، ولو أنك استمعت لى وأردت بى الراحة ، لألقيت إلى حديثك منذ خرجنا ولأرحت نفسك وأرحتني من هذا العناء الطويل . قال : لم يكن ذلك يستقيم يا سيدى فلعل شىء موعده وإبانة . وهذا الحديث لا يصلح له إلا الليل إذا تقدم وتجاوز نصفه وغمر كل شىء بهدوئه العميق . على أن جهدك لن يذهب عبثاً ، فإنى أعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجدى فى حل المشكلات لذة ، فأليك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت أن تواجه مسائل المنطق والفلسفة والأصول . أيهما أهون أن يحتمل : الظلم أم الكذب ؟ ولست أخفى عليك أيها القارىء أنى وجدت حين سمعت هذه المسألة ، ولم أستطع أن أسرع إلى الإجابة عليها . وظن هو أنى أفكر فأهمنى لحظة ثم سألنى عن رأيى فقلت : لا أدرى لأنى لا أفهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح ، والخير للرجل الكريم الفاضل أن يتجنبهما معاً . قال : فإن لم يكن له بد من أحدهما . قلت : دعنى من الأمور العامة ، وألق إلى حديثك فى صراحة ووضوح فعلى أفهم عنك ولعلى أستطيع أن أرد عليك . قال فى ضحك هادى : يظهر أنك فاتر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولأنبتك قبل كل شىء بآنى إنما أرتقت وأرقتك معى هذه الليلة لأنى سأصبح بطلا قبل أن ينتصف نهار الغد . وأنا لا أريد أن أنتظر البطولة نائماً ولا غافلاً ، وإنما أريد أن أنتظرها يقظان ، وأن آخذ لها أهبتها وأستعد لها كما يستعد الناس لعظام الأمور . وأنا أعلم أنك ضيق بى وبهذا الكلام الذى لا ينقضى

والذى لا يفصح عن معناه ، ولكنى أقسم لك جاهداً أنى لا أمزح ولا أهذى ولا أريد العبث ، وإنما أسوق إليك حديثاً كله حق وصدق وصواب . فلن ينتصف نهار الغد حتى أكون قد بدأت بطولتى وأقدمت على عمل ذى بال . ولست أزعم أنى سأكون بطلا من طراز الاسكندر أو قيصر ، ولكنى سأكون بطلا على كل حال ، سأكون بطلا لقصة من القصص لتكن تمثيلاً أو لتكن قصصاً مرسلًا ، ولكنى سأكتب الصفحة الأولى منها قبل أن ينتصف النهار غداً .

وكان يمضى فى حديثه هذا مستأنياً مستثبتاً حتى أخذت أسأل نفسى أمجنون هو ، ولكنه أسرع فردنى إلى شىء من الاطمئنان . قال : أتعرف أن نظام الجامعة يقضى على أعضائها ألا يتزوجوا حتى يعودوا من أوربا ؟ قلت : نعم . قال : ألم يخظرك أن هذه القاعدة قد تؤذنى وتضطرنى إلى بعض الحرج ؟ قلت : وما أنت وهذه القاعدة . قال فأنت تجهل إذاً أنى زوج . وهنا ظهر على دهش صادق لأنى كنت أجهل أن لصاحبى زوجاً ، وما كان يخظر لى أن امرأة تستطيع أن تحتمل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت أستطيع أن أتصوره إلا رجلاً مضطرب الحياة ظاهر اضطراب التفكير ، ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره إلى هذا الاضطراب ، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت أرى أنه يقضى نهاره كما رأيت يقضيه يعمل فى ديوانه قليلاً ويلغو مع الناس كثيراً . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الإنتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم .

فلما رأى ما ظهر على من الدهش والإنكار أغرق في الضحك . وقال :
لقد كنت تظننى طالباً مثلك أحياء حياة الطلاب ، ولكنك تعلم أنى موظف
وأن لى بيتاً كبيراً وأنى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم يخطر
لك أنى لم أكن أستطيع أن أستكمل ما ينبغى لمثلى من الحياة إلا إذا
اتخذت لى زوجاً . مهما يكن من شىء ياسيدى فأنا متزوج وقد ظفرت
بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من أن أمضى العقد إذا كان النهار ،
ومن أصول هذا العقد ألا أكون متزوجاً ، وألا أتزوج حتى أعود . فأنا
إذا مضطر إلى إحدى اثنتين . إما أن أكذب على الجامعة وأتورط فى
التزوير وأعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير من الشر إن ظهر أمرها .
وإما أن أظلم امرأتى فأطلقها ، فماذا ترى ؟ وكيف الخرج من هذه المشكلة ؟
وأحب أن تعترف قبل كل شىء بأنها مشكلة معضلة حقاً ، وبأنها خليقة
أن تكلفك ما كلفتك من الجهد ، وتحملك ما حملتك من العناء ، وتؤرقك
مع صديقك ليلة كاملة . قلت فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل
هذه المشكلة العنيفة بما ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والأناة . قال :
فإنى أنفقت وقتاً غير قصير فى الروية والأناة ، وأنفقت جهداً غير يسير فى
التماس الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما أملك من الوقت ، وقد انتهى
ما كنت أملك من الجهد ، ومن أجل هذا دعوتك لأستعين بك على
الخروج من هذا الحرج الذى لا أدرى كيف يكون الخروج منه ، إن من
اليسير أن أزعم للجامعة إذا كان الصباح أنى أعزب وأن أرسل امرأتى إلى

الريف لتقيم فيه حتى أعود إليها إن أتيت لى العودة . وما أظن أن هذا الكذب سيظهر ، وما أحسب أنه إن ظهر استمتع عواقب ذات خطر ، فماذا يعنى الجامعة من أمرى إن عرفت أنى متزوج وأنى قد كذبت عليها ما دمت لا أصطحب زوجى إلى حيث يجب أن أفرغ للدرس ، وما دمت سأجعل بينها وبينى هذه الآماد البعيدة فى البر والبحر . وقد يكون هذا الكذب مردولاً ، وقد يكون منافياً لأخلاق الذين يريدون أن يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن أكذب رغبة فى الكذب ، ولا تعلقاً به ، ولا حرصاً عليه ولا إشاراً لغش الجامعة وتضليلها، وإنما أكذب إن كذبت رغبة فى العلم وتهالكاً عليه وحرصاً على أن أغير حياتى وأجعل لها معنى وقيمة وخطراً وأثراً فى منفعة الوطن . والكذب مردول إلا أن ينتهى إلى نفع وإلى نفع صحيح ، وأن يحقق مصلحة ومصلحة قيمة ، فماذا ترى ؟ أليس هذا الكذب خيراً من الظلم الذى أقدم عليه إن طلقت امرأتى مع أنها لم تأت ذنباً ولم تقترف إثماً ولم تدفعنى إلى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره ، ولكنها لم تصرفنى عنها لأنها تؤمن بأنى لا أعزم إلا بعد تفكير صادق ، وانهاء إلى رأى مصيب . وما أظنك تقترح على أن أصدق الجامعة وأظهرها على جليلة الأمر . فانى إن فعلت لم يكن لهذا من أثر إلا أن تخيب آمالى كلها ، وأن أستئس من رحلتى ، وأطمئن إلى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لا نفع فيها ولا غناء . وأنا أعلم حق العلم أنى لا أملك هذه الشجاعة ولا أحتمل هذه الحياة وأنى إن صرفت عن هذه الرحلة بعد أن مدت لى

أسبابها وهيئت لي وسائلها ميت من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل نفسي إن ملكني الغضب ، وسيقتلني الحزن واليأس إن أتيج لي الصبر والاحتمال . فالغ هذا الفرض إلغاءً ومحمة محوياً فليس لي بد من أن أكذب على الجامعة أو من أن أطلق امرأتى لأكون صادقاً ، فاخترتي وأشر على .

قلت قد أنسيت كل ما كنت أجد من تعب وجهد ، وأنسيت الوقت وأنسيت المكان الذي أنا فيه ، وشاقتني علاج هذه المشكلة حتى ملك على أمرى كله ، وحتى أحسست كلفاً بالأخذ والرد والحوار ما أحسسته قط في درس من دروس العلم ، وقد لا يحسه شباب هذا الجيل الذي تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات بعد أن اتسعت حياتنا وبعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة الغربية وقرأنا من أديها وفلسفتها الشيء الكثير . قلت : فاني لأرى لك الظلم بحال من الأحوال ولا أفهم أن تحمل امرأتك ذنباً لم تجنّه ولا أن تحمل نفسك هذا الإنهم الثقيل ، ومع ذلك فاني لا أرضى لك الكذب ولا أعينك عليه ولا آمن عليك شره وآثاره السيئة . قال متضحكا : فأنت إذاً ترضى لي أن أموت . قلت : بل أرضى لك أن تكون رجلاً وأن تؤمن بما تلح في الدعوة إلى الايمان به ، من أن ظروف الحياة أقوى من إرادة الانسان ومن أن المثل القديم لم يعد الحق حين قال « لا بد مما ليس منه بد » . ومن يدري ! لعلك تستطيع أن تصور للجامعة أمرك كما هو وأن تحملها على أن ترضى منك هذا

الزواج الذى لن يكون له فى حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفا . قال : فانك تعلم حق العلم أن الجامعة لن تغير نظامها من أجل ، وأنى لم أنجح وحدى فى الامتحان ، وأن من ورأى اثنين يودان لو تقطعت بى الأسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها أحدهما من دونى . فأنا إن صدقت الجامعة . مضح برحلتى من غير شك وإذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس إلى هذا الصدق من سبيل . وأنت تخطىء إن ظننت أنه تممس الشباب أو أنه التعجل والتقصير فى التفكير ، فأنا أعرف نظام الجامعة هذا قبل أن أقدم على الامتحان ، وأنا أفكر فيه منذ أعلنت الجامعة حاجتها إلى هذه البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس إلى هذا الصدق الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أصارح الجامعة بجملة الأمر . قلت وإذا : فقيم تستشيرنى وقد أجمعت أمرك ووطنك نفسك على الكذب ؟ قال : كلا يا سيدى لم أوطن نفسى على الكذب ولو قد وطلت نفسى عليه لأمنت فيه ولأخفيت جملة الأمر عليك ولا جتهدت فى إخفائها على نفسى ، ولكنى قد وطلت نفسى على الظلم ، فأنا أريد أن أكون صادقاً ، حين أتحدث إلى الجامعة ، إذا كان الصباح ، وأن أكون ظالماً لنفسى ولا مرأتى . قلت : فإنى أرى فى هذا إثمًا بشعاً واستباحة قبيحة للشر ، واعتداء على حق من لا تملك الاعتداء عليه . قال وهو يضحك ضحكاً حزيناً : وأنت مع هذا أزهرى تدرس الفقه وتعرف أن الطلاق مباح وأنه أبغض الحلال إلى الله ولكنه مع ذلك حلال لاخطيئة

فيه ، ولا إثم على الذين يقدمون عليه . فأمر الزواج عندنا ليس إلى امرأتى بعد أن قبلته وهو ليس إليها وإلى ، وإنما هو إلى وحدى ، فأنا أستطيع أن أمسكه إن شئت وأستطيع أن أحل عقده إن أردت ، وأنا أريد أن أحل هذه العقدة لا إشاراً للطلاق ولا رغبة عن امرأتى ولكن إشاراً لما هو خير من الزواج ولما هو خير من الزوج وإن كانت خليقة بالحب والمودة والعطف ، إشاراً للعلم ورغبة فى رفى النفس والعقل . قلت : فإنى أخشى أن يكون هذا كله غروراً ووحياً من وحى الأمانى ، وما أدرى أيهما خير : هذا العلم الذى تتحدث عنه كأنه شىء لا يدرك إلا إذا تكلفت له ما ستكلف من الشر ، أم هذه الزوج التى أصفتك ودها ومنحتك حبها ، ووقفت حياتها عليك وجعلها الله رحمة لك وسكناً . ومن يدرى ! لعل تحصيل هذا العلم الذى تهالك عليه وتسبىح فى سبيله الظلم ، أن يكون ميسراً لك وأنت مقيم فى مصر بين أهلك لا تفارقهم ولا تتكلف لهم ظملاً ، ولن تكون أول من حصل العلم دون أن يرحل إليه ، والعلم يعبر إلينا البحر من أوروبا ، وهو يسعى إلينا فى دورنا ، ونحن نستطيع أن نلتمسه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الكتب . وإنى لأخشى ألا يكون حب العلم الخالص هو الذى يغريك بهذه الرحلة التى لن أخرج من أن أراها آتمة ، وإنما يغريك بها سأم الأديب والحرص على تغيير الحياة ، والطموح إلى منصب الأستاذ ، وهذا كله يغرى ، ولكنه يجب أن يكون أهون على الرجل الكريم من أن يدفعه إلى الظلم والإثم والعدوان . قال : يا سيدى إنك تضع وقتك ووقتي ، فلن

تقعنى بالعدول عن الرحيل ، ولا بإظهار الجامعة على جليلة الأمر . وليس إلى اقتناعى بالكذب على الجامعة سبيل . أتدرى لماذا أهون عليك ؟ فإنى أرى هذا الكذب مباحاً وما أكثر ما أبيع لنفسى أشياء تحرمونها أتم على أنفسكم ، ويجرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الأخلاق . أنا لا أكره هذا الكذب لأنى أراه إثماً ، وإنما أكرهه لأنه سيدفعنى إلى آثام أمقتها حقاً ، وإلى ظلم أرى أن ظلم الطلاق أهون منه . إنى لأعرف من أمر أور با شيئاً كثيراً . وقد قرأت غير قليل مما ترسل إلينا من القصص ، وسمعت غير قليل من أبناء الذين يرحلون إليها ويقيمون فيها . وكل هذا ينبئنى بأنى لن أقاوم الحياة الأوربية وآثارها فى نفسى كما ينبئنى للرجل الوفى لزوجه أن يقاومها . فأنا واثق يا سيدى بأنى سأثم وسأنفمس فى الخطايا وأنا أريد أن أحتمل وحدى هذا الإثم وأنفمس وحدى فى شرهذه الخطايا . وأنا أبيع لنفسى أن أكذب على الجامعة ، ولكنى لا أبيع لنفسى أن أكذب على امرأتى كذباً متصلاً ، فأزعم لها أنى وفى أمين ، على حين أنى قد غرقت فى الخيانة إلى أذنى . قلت وقد اقشعر جلدى واضطرب قلبى وأخذنى غضب عميق لا أكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه : فهل تعلم أنك تقول منكراً من القول ، وأنت تقدم على أمر بشع شنيع ، وأن حجبى لك يحملى على أن أتمنى ما استطعت أن تصرف عن رحلتك هذه صرفاً ، وأن تكره على الإقامة فى مصر إكراهاً . أنت تعلم أنك ستأثم فى أور با ثم تقدم مع ذلك على السفر إليها ، وتشتد فى هذا السفر . فأنت إذاً تريد الإثم وتعمد

الخطيئة وتصبر على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكذب تبلغ أذنيه حتى جن جنونه ، واندفع في ضحك عريض ، عال متصل ، أخرجه عن طوره وكاد ينتهي به إلى الشرف في جسمه وفي عقله أيضاً . وكان هو يضحك ويضطرب اضطراباً عنيفاً من شدة الضحك وأنا واجم ذاهل مبهوت أسأل نفسي أول الأمر عن هذا الخبل الذي مسه . ثم تثوب إلى نفسي قليلاً قليلاً وإذا أنا أحس العمامة التي على رأسي وأحس الجبة والقفطان اللذين أسبغاعلي جسمي إسباغاً ، وأذكر أنني شيخ وأنى أزهرى ، وأنى تحدثت إلى صاحبي حديث رجل الدين ، وأن صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني إلى مكاني الأول ، ويرى أن أمه في قد خاب وأن اختلافي إلى الجامعة واستماعي للأستاذة الأوربيين وتحدثي إليه واستماعي منه ، وما قرأنا من كتب أوربية ، وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتفكر له ولهم ، وما كنت أرمي به من المروق وإيثار البدعة ، وما كنت أجد من اللذة حين أحس أن الناس يرون في المروق وحب البدع ، كل هذا لم يكن إلا غشاء رقيقاً وطلاء يسيراً لا يكاد يثبت للتجربة الأولى ، فإذا جد الجد ، وكان أول درس من دروس الحياة العاملة التي ليست كلاماً ولا غروراً ، فأنا الشيخ الأزهرى القمح الذي حفظ ما حفظ من كتب الدين وورث ما ورث من آثار القرون ، واحتمل في قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصغيرتين ، ثقل السنين التي توارثتها الأجيال أثناء ثلاثة عشر قرناً .

أقول الحق أم أخفيه؟ ومالي لا أصطنع الشجاعة ولا أحمل نفسي على
بعض ما تكره، وإن الحياة لتحملها على ما تكره في أكثر الأحيان. لقد
استحييت من صاحبي، واستحييت حتى انتهيت إلى الخزي، وأحسست كأن
رأسي ذاب في عمامتي، وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شيء.
وأخذت أنضال في جبتي وقفطاني. حتى خيل إلي أنهما يستقران على هذا
الكرسي لا يملؤهما شيء. وأخذت قطرات من العرق تسيل على جبتي
فتبليها. وكادت الرعشة أن تجرى في جسمي المتضائل المضطرب. كل هذا
لأن صاحبي ظهر على جليلة أمري، وعرف أنني ما زلت أزهرى النفس والقلب
والعقل. أرى الانعاس في الحياة الأوربية إثمًا وأشفق على صاحبي منه،
وأرى الإصرار على الخطيئة وتعمد الاقدام عليها كفرًا، وأخاف على
صاحبي عواقبه. وإذا فأى فرق بيني وبين هذا الشيخ العتيق الذي كان
يعرض بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيتغنى في بعض دروسه بهذه
الجملة التي شاعت عنه والتي كنا نتندر بها، ونضحك منها. وكنت أنا أشد
الناس تندرًا بها ونضحًا منها، « ومن ذهب إلى فرانسا فهو كافر أو على
الأقل زنديق »

كذلك قال الشيخ وبذلك كنا نتندر في الأزهر، ومن ذلك كنا نضحك
في أندية الحرة التي كان الأزهريون يرونها أندية ابتداع وضلال. فقد
أصبحت أنا كهذا الشيخ أرى أن من ذهب إلى فرانسا فهو كافر أو على
الأقل زنديق. ومع ذلك فإن أساتذتي من الفرنجة في الجامعة يرون أنني حر

الرأى ويشفقون على من حرية الرأى هذه ، وكنت أنا أرى أنى حر الرأى وأغتبط بما يصيبنى فى سبيل هذه الحرية . فقد كنت إذا أ كذب على نفسى ، وكنت إذا أخدع أساتذتى ، ولم أكن إلا شيخاً أزهرياً قحاً يرى أن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق

كذلك كنت أفكر مستخزباً متضائلاً من الخزى بينما كان صاحبى يفرق فى الضحك ، حتى إذا أعياه اضطراب جسمه هداً بعض الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث أن يعود إليه الضحك العنيف فيهرزه هزاً عنيفاً وهو يردد كلمة المعصية هذه ويقول ما زلت تؤمن بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، وما زلت تفكر فى الكفر والإيمان .

ثم يمضى فى الضحك وأمضى أنا فى الخجل والاستخزاء . ومع ذلك فلو أنى كنت أتحدث إلى رجل هادىء عادى غير غريب الأطوار ، لما أنكرت من حديثى شيئاً ولما رأيت على نفسى منه بأساً ، فلم أكن أرى الذهاب إلى فرنسا كفرةً ولا زندقةً وإنما كانت طبيعتى كلها تثور لهذه الجراءة الوقحة ، التى كان يقدم عليها صاحبى فى غير تكلف ، وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغماسه فيها وتهيبته للانغماس فيها . ولقد مضت أعوام وأعوام وذهبت إلى أوروبا مرات ومرات وأقت فيها . فأطلت الإقامة ، وما زلت اليوم كما كنت فى تلك الليلة تثور طبيعتى كلها إذا سمعت من يتحدث فى هذه الجراءة الوقحة عن الخطايا والآثام والتهيبؤ للانغماس فيها . ولا بد من أن أمضى من قول الحق إلى أقصاه ، فقد وادعت صاحبى وصانعته

واجتهدت في أن أقنعه بأنى لست شيخاً أزهرياً قحاً ، لم أحب إليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيؤ للانغماس في الخطايا والآثام . ولكنى فقدت القدرة على مقاومته . وعجزت عن محاولة إقناعه بما كنت أرى ، لا لأنى ملت إلى رأيه ، بل لأنى كرهت أن يرانى شيخاً أزهرياً قحاً يؤمن بأن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق .

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشباب فاذا هم يتكفون ما لا يحسنون ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، ويتكفون هذا النفاق الغريب يخفون به ما في نفوسهم من أصول الخير ويظهرون به ما يرغبون فيه من مظاهر التجديد .

ثم يرتفع الضحى وإذا صاحبي يردنى إلى بيتى ويفارقنى ليذهب إلى الجامعة ويقول في لهجة ساخرة لاذعة : سألتك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فاذا لقينى في آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد احتجزت له مكانه على إحدى السفن ، وأنه مرتحل بعد أسبوع وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم إلى الريف وأن طلاقها سيبلغها إذا كان الغد .

٩

يونيو في سنة . . .

بينك وبينى أيها الصديق العزيز فتور أحسسته أمس حين التقينا في قهوتكم هذه التى تزدهم بالشيوخ ، ويشتد فيها لغتهم بالفقه ، والنحو ، والأدب ، وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التى تصدر عن الناس

وعن الترام وعن هذه العربات التي تخرج مع المساء من درب الجميز إلى شارع محمد علي ، لتنبث في أحياء القاهرة موزعة عليه ما يحتاج أهلها من اللحم . وقد كان هذا الضجيج المختلط خليقاً أن يحول بيني وبين الشعور بهذا الفتور ، حتى يطول الحديث بيننا ، ولكنني لم أكد أصالحك حتى أحسست الفتور في يدك ، وتأكدت أنه صورة للفتور في نفسك ، فلما تحدثنا فصل لي صوتك الهادئ ما أجمت يدك ، واستيقنت أن بينك وبينني شيئاً .

ولولا أصحابك من الشيوخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من بعد ، وأكره أن أجلس إليهم ، وأن يتصل بينهم وبينني الحديث ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء ، وما كانوا يشغلوننا به من أحاديثهم عن الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم ، وما كانوا يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يملون بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الأطعمة الرخيصة ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء لما اتصل الحديث بينك وبينني أمس إلا في هذا الفتور الذي تبينته في يدك وفي صوتك ، وفي وجهك . ولما انصرفت عنك إلا وقد رددت الأمر إلى ما كان عليه ، من هذا الصفاء القوي الذي لا تكلف فيه ، ولا احتياط . ولكنني جعلت أتهز الفرص لأخلو إليك ولتفرغ لي فلا تسنح ، ولم يكن من اليسير أن أطلب إليك النهوض معي لبعض الشؤون كما تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعتذر ، وستعلل بأنك متعب مكدود من ليلتك البيضاء ، التي قضيتها معي أمس .

على أنى لم أثبت أن تبينت أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أقدر حين رأيتك تتمتع بالعودة إلى بيتك ولا تحفل بالإحاح عليك والإحاح أصحابك فى أن تبقى معنا كما تعودت أن تبقى حتى يتقدم الليل ، وتقل الضوضاء فى الشارع ، ويطيب الحديث فى هذه القهوة الجميلة .

ولقد هممت أن أنهض لأرافقك إلى بيتك ، وكنت أظن أن فى مرافقتك هذه الدقائق ما يتيح لى أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور ، وكنت واثقاً بأنى إن بلغته فلن أدعه حتى أمحوه محواً ، وإن أرقتك ليلة أخرى . ولكن الله لم يرد ذلك ، أو لم يرد أصحابك الشيوخ ، فقد نهض صاحبك هذان اللذان طالما نقصا على مجلسى معك فرافقك ، واضطرتت أنا إلى التخلف ، والله يعلم إلى أين ذهبت ، فلست أشك فى أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت إلى بيتك ، وأكاد أعتقد أنك إنما تكلفت الانصراف وتعبجت العودة لتخلص منى ومن كان من أصحابك ، ولتفرغ لصديقك هذين فتتقضى معهما شرطاً من الليل غير قليل ، فيما تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث .

ولولا أنى كرهت أن أثقل عليك وعليهما وأن أوصف بالإحاح ، لتبعتمكم لأعلم علمكم ، ولأسقط عليكم بعد أن يستقر بكم المجلس ، ولأخذ موضوعاً للصراع بينهما وبينى ، فلا أنصرف عنك ، حتى أصرفهما ، وما أوسع حيلتى حين أريد أن أصرفهما عنك ، وأى شىء أيسر من أن آخذ معك فى بعض الحديث ، الذى لا يجبانه ، ولا يسيغانه ، ولا يفهمانه ، فإذا

أنت تجيب وإذا أنا أمضى في الحديث ، وإذا هما يظهران الضجر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتشاءبان ، ثم يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان ، ولكني لم أنشط لشيء من هذا لأنني لم أجد منك ما يعينني على النشاط إليه ، ولأنني لم أجد من نفسي ما يدفعني إلى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاتراً ، وكنت أنا مثقل النفس بالهم ، مملوء القلب بالحزن ، والله يعلم ما احتجت إليك في يوم أوليل كما احتجت إليك أمس ، وما افتقدتك في يوم أوليل كما افتقدتك مساء أمس . لقد رأيتمكم تنهضون ، وأتبعتمكم بصرى وأنتم تسعون إلى درب الجمايز . حتى إذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى في الفضاء أمامه كأنما كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم وأن يدعوكم إلى وأن يردكم على ، ولكن بصرى لبث ثابتاً في الفضاء ، لم يستطع أن يتبعكم ولا أن يبلغكم ولا أن يؤدي إلى أنفسكم ولا إلى نفسك أنت خاصة رسالة نفسي ، فرددته إلى خائباً محزوناً ، ومكثت في قهوتكم هذه أنظر ولا أكاد أرى وألقى السمع ولا أكاد أسمع ، ويتحدث إلى من حولى فأجيب حيناً ، وأذهل أحياناً عن الجواب . وقد تفرق الناس من حولى كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف . وخلت القهوة لى ولجماعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ، فأنفقت فيها ما استطعت أن أنفقه من الوقت ، وأستطيع أن أبتك صادقاً بأنى دهشت حين سمعت الخادم ينهني إلى أن قد آن أوان الإغلاق ، فهضت كارهاً متثاقلاً ، وأخذت الطريق التي أخذتموها ، في درب الجمايز ، أسعى أمامي وكأني كنت أقدر

أننى سألقاك عائداً إلى بيتك مع أحد صاحبيك ، فأخذك منه قهراً أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين في القاهرة ، أو لاجئين إلى داري أو إلى هذا السطح الجميل الهادىء الذى ينبسط أمام بيتكم الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم إنما ذهبتُم عند أحدكم في هذا البيت الذى يسكنه غير بعيد من بيتي ، عند جامع ابن طولون ، فسمرتُم ماشاء الله أن تسمروا وهزأتُم بشيوخكم في الأزهر ماشاء الله أن تهزأوا ، وذكرتُم من أنباء صاحبكم . . . ماشاء الله أن تذكروا ، وتناشدتم الشعر وهجا بعضكم بعضاً ، وأثنى بعضكم على بعض ، ثم آن لكم أن تفرقوا فبقي أحدكم في بيته وخرجت أنت مع صاحبك تسعيان في هدوء الليل الساكن وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من هؤلاء السكارى الذين يتخبطون في هذه الأحياء الوطنية حين يعودون إلى بيوتهم آخر الليل ، حتى إذا بلغتُم بيتك آويت إليه ، ومضى صاحبك وحيداً ، يسرع في هدوء الليل كأنه السهم ، حتى يبلغ داره في أقصى الظاهر . كنت أقدر هذا كله وأكاد أثق به ، وأكاد لأشك في أنى سألقاك مع صاحبك في بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام من بعد ، إلا خيل إلى أنها أقدامك ، ولكننى قطعت درب الجمايز حتى انتهيت إلى السيدة دون أن ألقاك ، ثم مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم ألقك ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك ، فلم ألقك ، ولم أرفى البيت ما يدل على يقظة ، ولم أسمع منه ما ينبىء باتصال السمر والحديث . فضيت في طريق يأساً من لقائك محزوناً لهذا الفتور الذى لم أستطع

أن أمحوه حتى انتهيت إلى بيتي، وليتني لم أنته إليه، لقد كنت ذاها لا حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت أن أفعل وانتظرت، ثم دققته مرة أخرى ومرة ثالثة، وكان الصوت يتردد في هذه الدار ثم يعود إلى فينبتني بشيء لا أكاد أفهمه، حتى إذا كانت الطرفة الثالثة عاد الصوت إلى ينبتني بما فهمته وارتعت له، عاد الصوت إلى يقول لي إنك لأحق، فيم تطرق الباب وليس من ورائه من يسمع لك، ولا من يسرع إليك، لقد تحمل من كان في البيت وأصبح البيت خالياً فارغاً هادئاً ينتظر مقدمك لتملأه وتعمره وتذيع فيه الحركة، لا تعد طرق الباب، فلن يستجيب لك أحد، ولكن أخرج المفتاح وأدره في القفل أمامك، فإذا انفتح الباب لك، فادخل وأغلقه من دونك أو لا تغلقه، فمن يدري! لعلك لا تستطيع مصاحبة لهذه الوحدة المروعة في هذا البيت الذي لم يتعود الفراغ. لن تهديك الخادم الصغيرة بمصباحها الضئيل كما تعودت أن تفعل، فأنت تعلم أنها سافرت مع سيدتها، فأخرج من جيبك علبة الثقاب وأضئ لنفسك ظلمة الطريق واذهب إلى أي الوجهين شئت، اذهب إلى غرفتك الحرام، فلا بأس عليك من الالتجاء إليها، لن يبلغك فيها صوت، ولن تنتهي إليك فيها حركة. ولن تتحدث فيها إلى صديقك، ولن تلتقي فيها إلا كتبك التي لا تحصى. ومن يدري! لعل نفوس المؤلفين لهذه الكتب قد أقبلت جماعات من أعماق الزمان ومن أقطار الأرض، لتؤنس وحشتك في هذه الغرفة الخالية. واذهب إن شئت إلى غرفة نومك فلن ترى في السلم سراجا مضيئاً

ولن ترى إذا اتهمت إلى أعلى السلم خادمك الصغيرة مستلقية تغالب النوم وتنتظر مقدمك . ولن ترى في غرفتك امرأتك في سريرها تتكلف النوم وهي مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك ، ولا أن تشق عليك ولا أن تلتقي في روعك أنها تارق حتى تعود إلى غرفتك . فإله يعلم أنها لا تارق إلا انتظاراً لك ، وشوقاً إليك ، ولكنها خليق أن تسيء الظن وأن تقدر أنها إنما تارق لتحصى عليك الساعات . تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترففاً ولا محتاطاً فلن توظأ أحداً ، ولن يحس مقدمك أحد ، ومن يدري ! لعل ظلاً من امرأتك قد أقام في هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى أن يفارق هذا البيت حتى تفارقه أنت لتعبر البحر .

نعم عاد إلى صوت الطرقة الثالثة بهذا الحديث الطويل ، في لحظات لا أدري أكن طولاً أم قصاراً ، ولكن الذي أعلمه هو أنني لم أخرج للمفتاح ولم أدره في القفل أمامي ، ولم يفتح لي الباب ، وإنما لبثت قائماً أمام البيت بعد أن تردد هذا الحديث في أعماق نفسي ، فملاًها حزناً ووحشة ورعباً ، وأكاد أكتب وندما ، ولكني لا أريد أن أعترف بأني أحسست الندم لبثت قائماً أمام البيت أسأل نفسي أقدم أم أحجم ؟ أأدخل الدار أم أنصرف عنها . ثم لا أخفي عليك لقد عجزت عن الإقدام وكرهت أن أفتح الباب ، ولم أحس شوقاً إلى لقاء الظلال ، ظلال العلماء والأدباء والفلاسفة ، قد أقبلوا يؤنسون وحشتي في الغرفة الحرام . ولم أجد جليداً على أن أتق ظل امرأتى في غرفة نومي ، وإنما استحيت منه أشد الاستحياء ، لم أدخل

الدار وإنما انصرفت راجعاً أدراجي ، ومضيت أهيم في الطريق أمامي ،
أخرج من شارع لأدفع إلى شارع آخر ، لا أحفل بما قد يظنه بي هؤلاء
الخفراء والشرطيون الذين لا أشك في أنهم كانوا ينكرون شخصي الهائم ،
في مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل ، ولعل منهم من هم أن يسألني
عن أمري ، ولكنه لم يجد على من مظاهر الريبة ما يغريه بهذا السؤال ،
نخلى بيني وبين الطريق .

وما زلت أهيم وأهيم في غير وجه حتى أحسست يقظة الناس من
حولي ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء إلى الله ، فثابت إلى
نفسى بعض الشيء مع ضوء النهار ، وتكلفت في مشي ومظهرى ما يصرف
عنى كل ريبة أو شك ومضيت في هيامي ، ساعة وبعض ساعة ، ثم أنظر
فإذا أنا عند قهوتكم هذه التي التقينا فيها مساء أمس . من أين جئتها ،
وكيف انتهيت إليها ، لا أدري ، ولكنى قد بلغتها وبلغتها متعباً مكدوداً ،
وما كدت أرى هذه الكراسى ينسقها الخادم في شيء من الكسل والفتور
حتى أحسست كأن هذه الكراسى تدعوني إلى الراحة ، وحتى رأيتني
أستجيب لدعائها ، وأسرع إلى الجلوس ، وأطلب إلى الخادم أن يحمل إلى
الشاي . ومن قهوتكم هذه أكتب إليك الآن أيها الصديق . وكنت
أريد أن أحدث إليك عن هذا الفتور الذي أحسسته منك أمس لأحموه
ولأنهم معك الحديث الذي كنا فيه والذي قطعتة أنا بهذا الضحك المفاجيء
السخيف الذي دفعت إليه دفعاً والذي أفسد الأمر بينك وبينى . ولكنى

لم أحدثك إلى الآن إلا عن نفسى وعن ليلتى البيضاء الثانية التى قضيتها فى غير راحة ولا أمن ولا هدوء . على حين لهوت أنت مع صاحبك ثم استمتعت بالراحة والنوم ، وها أنت ذا الآن تستقبل النهار نشيطاً مستريحاً مبتسماً للحياة ، تريد أن تمضى فيما تعودت أن تمضى فيه من القراءة أو الدرس ، أو تريد أن تخرج للقاء صاحبك أحدهما أو كليهما ، أو تريد أن تنتظرهما فعلاهما أن يزوراك ليخرجاك أو ليبقىا معك . ألسنترى أنك أثر مسرف فى الأثرة وأنك تترك صديقك يحتمل وحده أثقال الشقاء ؟ ألسنترى أن من حق صديقك عليك أن تسرع إليه فتسمع منه ، وتقول له ، وتسليه وتواسيه ، فإنه سيدشى وحده دهرأ طويلا حين يعبر البحر إلى تلك البلاد التى ليس له فيها صديق ؟

سأرسل إليك هذا الكتاب مع خادم القهوة وسأنتظر بعد إرساله ساعة فمن يدرى لعلى أن أراك مقبلا مع غلامك الأسود الصغير
دخل على " هذا الكتاب غلامى الأسود الصغير هذا وأنا أتهيباً للخروج وكنت كما قدر صاحبي على موعد من صديقي لنذهب إلى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكذب فرغ من قراءة هذا الكتاب على " فى لهجته الأسوانية التى كانت تضحكنى عادة لأنها تجعل القاف غيناً والغين قافاً والتى لم تضحكنى اليوم وإنما آذنتى ومألت صدرى حرجا . لم يكذب فرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا إلى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرنى صديقاى ، بل إلى قهوة الزاوية حيث كان ينتظرنى صاحبي هذا الشقى .

١٠

ألم أقل لك أول أمس إنى سأصبح بطلاً قبل أن ينتصف النهار من غد؟ فإني قد صرت بطلاً منذ أمس وما أظنك تمارى في ذلك بعد أن قرأت الكتاب الذى أرسلته إليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة أمامه بعصاه ضرباً خفيفاً ، فلما أقبل الخادم طلب إليه إبريقاً من الشاي ، ثم استأنف حديثه متعباً مكدوداً وفي صوته شىء غير قليل من التكسر والفتور . قال : نعم لقد صرت بطلاً منذ أمس ، بطلاً لقصة قد تكون كلها جداً وقد تكون كلها هزلاً وقد تكون مزاجاً من هذا وذاك ولكنها قصة لا بد لها من بطل على كل حال ، وقد أردت أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس من الأشياء الهينة أن يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها ويؤثرها ويعرف لها جيلاً لا يستطيع أن يقدره ولا أن يكافئها عليه . ليس هذا من الأشياء الهينة ولا سيما حين تكون هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة القلب نقية الضمير لا يأخذها زوجها بخطيئة ولا يتعلق عليها بسبئة ولا يلتقى منها إلا ما يسره ويبره ويرضيه ، ومع ذلك فقد أقدمت على هذا الشىء الخطير إشاراً للعلم وإن شئت فقل إشاراً لرق الدرجة وارتفاع المنزلة ، وإن شئت فقل اجتناباً للكذب على الجامعة وفراراً من الخيانة الممكنة ، بل الراجحة ، بل الحقيقة . وأنا أعلم أنك قد أنكرت على هذا وأنت كنت تجادلنى فيه ، ولكن تلك

الضحكة التي لقيتكم بها حين اتهميت إلى بعض الحديث قد قطعت على
وعليك هذا الجدال وكادت تفسد ما بينك وبينى من الأمر .

فالآن وقد قرأت كتابي وعرفت من أمرى ما عرفت وزال من نفسك
هذا النفور الذي كنت أحسه أمس فقد نستطيع أن نعود إلى هذا الحديث
لتعلم أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أعتزم وأنى لست مخطئاً فيما تمت عليه
من فراق امرأتى قبل أن أرحل إلى أوروبا . وأقبل الخادم يحمل الشاى
فملاً منه قدحاً لى وقدحاً له وهو يقول هذا خامس أفداح الشاى التي شربتها
منذ بلغت هذا المكان فى أول النهار .

ثم عاد إلى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى داره ، فقال :
لقد كنت تلومنى على أنى أقدر الإثم وأفكر فيه وأعلم منذ الآن أنى
سأقترفه وأتھيماً بفراق امرأتى لاقترافه ، وكنت ترى الإصرار على هذا كله
خطيئة بل كفراً وخروجاً من الدين ، وكان حديث الكفر يدهشنى لأنى لم
أكن أنتظره منك بعد أن عرفتك حر الرأى غالباً فى التجديد . فلا تغضب
إن أظهرت هذا الدهش ، وعد بنا إلى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ أن
يعرف الانسان مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وأن
يحتاط لما يعرف من ذلك فلا يقترف من الآثام ولا يجترح من السيئات إلا
ما لا يجد منه بداً ولا عنه منصرفاً . أم أن يخدع الانسان نفسه ويعره
بها الغرور فيضيف إليها الخير وليست بخيرة ويثبت لها الفضيلة وليست
بغاضلة ويحملها ما تطيق وما لا تطيق ، ويقترف من الآثام ما يستطيع أن

يجتنبه ويتقى التورط فيه . وما رأيك في أنى أعرف من نفسى مواطن الضعف وأقدر أن الحياة الجديدة في ذلك البلد الذى أنا راحل إليه ستمحو منها هذا المقدار اليسير الذى بقى لها من رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ما تواضع الناس على أنه الخير، وستغمرنى أمواجها الزاخرة المصطنخة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وإنما أعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير ما يأتون . أفإن صارحت نفسى بالحق وأخذتها بأن تحتمل وحدها أوزار أعمالها كنت خاطئاً معنفاً فى الخطيئة وكافراً مسرفاً فى الكفر . فإذ ضللت نفسى تضليلاً وغررتها تغريراً وزينت لها وللناس أنى سأكون فى فرنسا خيراً مما أنا فى مصر تقيماً تقيماً و براً طاهر القلب، وأنا أعلم أن ذلك لن يكون مهما أحاوله وأعلم قبل ذلك أنى لن أحاوله لأنى لن أستطيع التفكير فى محاولته ، أفإن عمدت إلى هذا التضليل والتغدير برئت من الخطيئة ونجوت من إثم الكفر والمروق . أأنت ترى فى هذا النحو من التفكير والفهم والحكم عوجاً والتواء ؟ قلت : لا أدرى ولكنى أؤثر للرجل أن يقع فى الخطيئة إن لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك ولا تهيؤ له ولا تفكير فيه ، وأرى فى هذا الاستعداد للانتم بدأ فى اقترافه وفى هذا التهيؤ للإساءة شروعاً فى الإساءة وفى هذا التفكير فى الشر قبل أن يقع مع أن من الممكن ألا يقع استعداداً رديئاً للشر وإلحاحاً آثماً فى دعائه ، وقد كان يحسن ألا تدعوه . والأمر لا يقف فى رأى عند الدين ولا عند الكفر والايمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد

والأخلاق ، وإنما هو يتجاوز هذا كله إلى شيء لا أدرى كيف أصفه ، ولكن صورته تقع من نفسى موقعاً سيئاً . فقد يخيل إلى أن الإنسان المتحضر المتقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى أمام نفسه إن وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد يخيل إلى أن حياء الرجل المتقف من نفسه هو خير أنواع الحياء وأرق منازلها . وقد يخيل إلى أن في مواجهتك لهذا الشر الذى لم تعرفه ولم تدفع إليه بعد ، وفى تأهيبك له ، شيئاً من الخروج عن هذا الحياء الذى لا ينبغى للرجل المتحضر المتقف أن يبرأ منه .

قال : فأنت تريد أن تقول إنى وقع أمام نفسى ، فليس غريباً أن أكون وقعاً أمام الناس ! قلت فى شيء من التحفظ : هو ذلك ، بل إن فى الأمر ما هو أغرب من هذا ، فانك لا تظهر وقعاً أمام الناس ، وما أعرف أن أحداً أساء الظن بك أو شك فى سيرتك أو رماك بالخلاعة أو اتهمك بالمجون . فأنت إذاً تظهر للناس غير ما تضرر ، وأنت إذاً تكشف للناس بما لا تكشف به نفسك ، وأنت إذاً خليع ماجن ، ولكنك تظهر للناس أنك صاحب جيدٍ واحتشام . قال وقد عاد إليه نشاطه واستأنف ضحكته العريض : فإنى ياسيدى خليع ماجن ، ما أرى فى ذلك عيباً وما أشك فى أنى عظيم الحظ منه . وإذا أخفيت ذلك على الناس فما أخفيه إلا اتقاء لشر الناس وإيثاراً لمنفعتى ليس غير . فقل إنى وقع فى السر ، وقل إنى رجل لا حظ له من حياء ، فأنت إن قلت ذلك لم تعد الحق ولم تؤذنى ؛ لأنك لست كغيرك من الناس ، ولأنك لا تملك أو لا تستطيع أن تؤذبنى وأن تفوت على حظى

من الخلاعة والمجون . وأنا على هذا كله أرى أنى أقرب إلى الخير من قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجونا ، ولا يكشفون للناس ولا لأنفسهم عما يظنون من سرائر بغیضة ونيات آثمة خبيثة . فأنا أريد أن أحتمل وحدي وزر خلاعتي وثقل مجونى ، وأنا أعلم أن حساب ذلك بينى وبين ضميرى أو بينى وبين الله . ولكنى لا أحب أن أمسك امرأتى فأحملها ثقل ما أقترف من الآثام والسيئات ، وأخونها وأنا أزعم لها أنى وفى . إنى لأعلم أنى ما خنتها منذ اتخذتها لى زوجا على كثرة ما نازعتنى نفسى إلى الخيانة . ومن يدرى ! لعل حظى من الحياء أمام نفسى أكثر مما تظن . ومن يدرى ! لعل حظى من هذه الأخلاق الأخرى التى تعصم الرجل من الخلاعة والمجون أكثر مما تظن أيضاً . وإنى لأقيس نفسى إلى صاحبك هذا الشيخ يظفر بالإجازة التى تجعله من علماء الدين وتضمن له أجراً يوسع عليه فى الحياة ويمكنه من الترفيه على نفسه ، حتى أقدم على ما تعلم وما لا تعلم من الآثام والخطايا والخصال التى لاتلائم علماً ولادينا ولا خلقاً ، فهو يفرق فى المجون والإثم إلى أذنيه حين تمكنه الفرصة ، فان لم تُواته دعاها واتخذ إليها الوسائل والأسباب . وهو فى الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها أنه أظهر الناس سيرة وأعفهم لساناً وقلباً ويذا . وهو فى الوقت نفسه يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الإيمان والنسك ، ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون فى المسجد قد سبق إلى الصف الأول ، ولا تراه فى مجلس من المجالس العامة ولا فى ناد من الأندية إلا وفى يده سبحة يعبث بها ، أو كتاب من كتب العلم أو الدين ينظر فيه أو ينصرف من

النظر فيه وكأنه قد أكره على هذا الانصراف إكراها . أنا ياسيدي خير من هذا الشيخ في نفسى ، وخير منه في نفسك ، وخير منه عند الله . قلت ضاحكاً : أما أنك خير من هذا الشيخ في نفسك وفي نفسى فهذا شىء ليس فيه شك . وأما أنك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا . وما أرى إلا أن كليكما شر من صاحبه ، وما أرى أن الوقاحة في الإثم خير من النفاق ، ولا أن النفاق في الإثم خير من الوقاحة ، إنما أمركما كحمارى العبادى قيل له أيهما شر؟ فقال : هذا ثم هذا .

قال وقد أرسل من فمه ضحكة ملأت القهوة ، وما أشك في أنها لفتت إلينا من كان فيها من الناس : ليس هذان الحماران سواء يا سيدى ، بل إن بينهما شيئاً من الاختلاف . فأما أحدهما فقد ينفق النهار لا يذوق طعاماً وقد يارق الليل لا يذوق نوماً ، حتى إذا استقبل الصبح وأدركه الضعف وأضناه الأرق والتفكير استعان على الضعف والضعف بأكواب من الشاى يحسوها هادئاً رقيقاً ، ثم يخوض معك في أحاديث العلم والدين ، ويجادلك في الأخلاق وفلسفة الأخلاق ؛ فهو حمار مثقف متحضر ، إن جاز للحمير أن تأخذ بحظ من ثقافة أو حضارة . وأما الآخر فهو الحمار الذى ذكره القرآن ، يحمل الأسفار ويشقى بثقلها ولا يعي ولا يفقه مما فيها شيئاً . ولو قد رأيت منذ حين في هذا المكان الذى لم يبرحه بعد لوليت منه فراراً ولملت منه رعباً ، إذأ لرأيت حيواناً قد أقبل على طعامه من الفول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه من اليابس والأخضر ، وهو يلتهم الفول التهاماً ،

ويقضم البصل قضمًا ، وبين يديه هذا الغلام الذي لا يزال معه إلى الآن
يأكل متحفظاً مستخدماً من نفسه ومن مكانه بين يدي هذا الشيخ أمام
الناس . ثم يفرغان من الالتهام والقضم ، ومن الازدراء والحضم ، ويحمل إليهما
الشاي ، فاذا الغلام يتناول في أناة ومهل ، وإذا شيخك الحمار أو حمارك
الشيخ لا يكاد يملأ القدح حتى يلقيه في جوفه إلقاء كما يصب الماء من
النوافذ على الأرض صباً . وأقسم لقد رأيت من حين يقبل على هذه
القهوة ضعيفاً مكدوداً ويسعى إلى مجلسه منها بطيئاً متهاكاً ، ثم يلقى
نفسه على كرسية إلقاء ، كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغي له
من اعتدال القامة ، فخر على كرسية كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيت يقبل
ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فهاشككت في أنه أتفق ليله أو أكثر
ليه في غير النوم وفي غير ما يارق له النساك والصالحون ، وفي غير ما يسهر
له العلماء والمفكرون ، وفي غير ما أنفقت فيه ليلي من ألم وندم ومن هيام
واضطراب في الأرض . ثم لم يكد يستقر ويستقر غلامه هذا بين
يديه ، حتى أقبل الخادم فسمع منهما كلاماً ثم انصرف ، وأقبل صاحب الفول
يحمل آنيته وطعامه وحزماً من البصل . وانكب الشيخ على ما قدّم إليه
لا يعقل ولا يعي ولا يستأني ولا يكاد يمضغ أو يذوق ، إنما هي يد تنقل
الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه في مكانه الآخر من جوفه . حتى إذا
امتلاً واكتظ وحاول أن يطفى نار الهضم بهذه الأقداح من الشاي التي
ألقاها في حلقه إلقاء ، تهالك على كرسية كما أراه الآن لا نائماً ولا يقظان ،

وإنما هو شيء بين ذلك . وغلامه جالس بين يديه يرمقه في خزي
وازدراء ، ثم ينظر في صحيفته ويشغل نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم إلى
أين يذهبان إذا قاما . والله يعلم فيمَ ينفق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ
نهاره . وأكبر الظن أنه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس
بالشر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك ، فيؤدى الصلوات في أوقاتها ،
ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع في هذا المسجد أو ذاك
من المساجد التي تلقاه في بعض الطريق . كلا ! ليس الحماران سواء
ياسيدى . أحدهما حمار متحضر مثقف ، والآخر حمار وحشى غليظ .
قلت وقد أغرقت في الضحك : هما حماران على كل حال ، ولكن
صورة الحمار الوحشى الغليظ تعجبني من الناحية الفنية .

قال : كل يصف حماره الوحشى كما يستطيع ؛ فما أظنك تريدنى
على أن أصفه كما كان الشعراء الأقدمون يصفون حُمُرهم الوحشية . وإنك
لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمراً تمشى على أربع ، أما نحن
فنرى حمراً تمشى على رجلين . ثم صب لنفسه قدحاً من الشاي وأخذ
يدير الملعقة فيه مستأنياً بطيئاً كأنما يأتي عملاً آلياً على حين قد
شردت نفسه وفارقتة إلى مكان بعيد . وسكت عنه حيناً فلم يتحدث ،
ومضيت فى الصمت فضى فيه ومضت يده تدير الملعقة فى القدح . حتى
إذا أنكرت منه ذلك قلت له : ويحك ! ماذا تصنع وفيك تفكر ؟
قال : ياسيدى إن الحمر لاتفكر ، ثم ألقى الملعقة من يده وأخذ يحسو الشاي
مصماً على الصمت وماضياً فيه . قلت : فإني أغضبتك حين شبهتك

مع صاحبك بحماري العبادي ، فلا بأس عليك ، فواحدة بواحدة . لقد أغضبتني أول من أمس ثم اعتذرت إليّ ، وقد أغضبتك الآن وأنا أعتذر إليك ، فعد إلى مثل ما كنا فيه من الحديث .

قال : ما أغضبتني وما أكره أن أكون حماراً مادمت أعرف أني حمار متقف متحضر . فارتفاع القامة في السماء وانحاء الجسم الى الأرض والمشى على رجلين أو على أربع ، كل ذلك لا يعنيني مادمت أجد اللذة والألم في الحس والشعور والتفكير . أتدرى ماذا كنت أصنع حين أقبلت على آنفاً ؟ . قلت لا . قال : فإني كنت أتحدث الى امرأتي فأطلت الحديث ، ثم أحسست أنها لن تفهم من حديثي شيئاً ، فطويت كتابي وتحدثت إلى أبي في الأسطر القصيرة التي أقرأها عليك . ثم أخذ يقرأ :

« والدى العزيز .

إذا انتهى اليك كتابي هذا ، فستجد معه صك الطلاق ؛ فإني قد طلقت حميدة أمس على كره مني ؛ لأنني لا أدري كم يطول مقامي في أوربا ، وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تبجن ذنباً ولم تقترف إثماً . وما لها تتعذب لأنني أريد أن أعلم ، وتشقى لأنني أكلف بالاعتراب ! . وإني لمحزون لهذا الطلاق الذي أقدمت عليه ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . فأقرأ عليها تحييتي وعذري واستوص بها وبأهلها خيراً . والسلام عليك ورحمة الله . »

ثم قال : وكذلك يا سيدي أديت في هذا اللفظ القصير السخيف معان لا تتسع لها الكتب الطوال ، لأن الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس ، وأن تظل بينهم الحجب الصفاق ، فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم

يعيشون معاً وأنهم يتعاونون على الحياة وإن لكل واحد منهم لبرجاً من العاج يعيش فيه لا يظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على إنسان .

قلت : وكتابك إلى امرأتك ماذا صنعت به؟ قال : طويته . وماذا تريد أن أصنع به إلا أن أمزقه وألقيه إلى النار . قلت : فألقه إلىّ إن لم تجد بذلك بأساً . قال : وأى بأس أن تلتهمه أنت أو أن تلتهمه النار ! سواء علىّ ، ولكن لا تطلب إلىّ أن أقرأ عليك هذا الكتاب ! نخذه وليقرأه عليك غلامك الأسود متى شئت . أما أنا فإني متعب مكدود ، وأظن أن قد آن لي أن أنصرف عنك ، فليس بد من أن يخلو هذا البيت مما فيه من الأثاث . قلت : سنتصرف عنى ، وستخلى بيتك من أثاثه ، ولكن بعد أن تستريح فأنفق معى بقية اليوم وافرغ لأمرك إذا كان الغد . وم فلننصرف الى بيتى؛ فلعلك تظفر فيه ببعض الراحة .

ثم نهضنا متثاقلين ، وخرجنا متباطئين . فلما جاوزنا الباب قال فى ضحك خفيف : ما زال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار فى ركنه يقظان كالنائم ونائماً كاليقظان .

١١

يونيو فى

لم يؤوئى البيت منذ فارتك ظهر أمس يا حميدتى العزيزة . ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتى كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة الى هذا

الوقت الذي أكتب إليك فيه وقد كاد يرتفع الضحى . ذلك أن في نفسى صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقنى ، وهى صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجهة لا تنطقين . ثم لم أكّد أقبل عليك وأدعوك باسمك حتى رفعت إلى عيناً مثقلة لا تريد أن ترتفع ، ثم انهمرت دموعك انهماراً صامتاً لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير وشهيق . وقد نظرت إليك وأنت فى هذه الحال ساعة لم أقل لك شيئاً ولم أقل لنفسى شيئاً ، وإنما وجهت كما كنت واجهة ، ثم انهمرت دموعى كما انهمرت دموعك ، ثم قام كل منا فى مكانه لحظات لا أدرى أكانت طوالاً أم قصاراً ، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع غزير . ثم سمعت إليك فى رفق فضممتك إلى وطوتك بذراعى ، فلم تقولى شيئاً وإنما أسندت رأسك إلى كتفى وظل دمعتك ينهمر سخياً غزيراً . ثم أخذت رأسك بين يدى ، ولثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعتك شرباً ، ثم قبلت جبهتك وخذيك ، ثم ضممتك إلى مرة أخرى فقبلتنى ، ثم افترقنا ومضى كل منا فى الاستعداد للرحيل .

لم تفارقنى هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقنى ؛ فما زلت منذ أمس أنظر إليك واجهة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعى تذرّفين دموعك على كتفى ، ثم أراى أقبلك وأراك تقبلينى ، ثم أراك تسعين فى الغرفة ذاهبة جائية تهيمين متاعك فى صمت متصل لا يقطعه شىء حتى ولا زفرة من الزفرات . ولقد اضطربت فى المدينة بقية النهار وشطراً من

الليل ، ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم ، وخيل إلى أنهم يفهمونني وخيل إلى أني أفهمهم ، وخيل إليهم في أكبر الظن أني كنت كما تعودوا أن يروني دائماً ثرثاراً ساخراً متصل العبث والمزاح . ولكن الله يشهد ما خلصت لواحد منهم ولاخلص لي واحد منهم ، وإنما كنت أمنحهم بعض نفسي أو كنت أمنحهم أيسر ما يستطيع الرجل أن يمنح من نفسه . وكنت أرى أن هذا يكفي لأفهم عنهم وليفهموا عني ، وكانت خلاصة نفسي مملوءة بك منصرفة إليك تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجاً حتى لكأنها هي . ولست أدري : أتعرفين أني كثير التفكير والتحليل ، وأنى لأحس شيئاً ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليله ! ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبينى إلا أيسر ما يكون من الصلات بين الأزواج ! فأنت لا تعرفين من أمرى إلا أقله وأيسره ، وأنا لا يفوتني من أمرك إلا أقله وأيسره . لست أدري : أتعرفين أني كثير التفكير والتحليل ! ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور على ولزومها لنفسي وامتلاكها لقلبي وامتلاء خواطري بها وأحسست ما كان بينها وبين نفسي من الامتزاج ، أخذت أفكر فيما يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير . ولكن فيم أنحدث اليك يا حميدة البائسة ! إنى لأقص عليك سخفاً لا يعنى ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوزه إلى قلبك الحزين . وما أنت وهذا الكلام ! وما أنا والتحدث به اليك ! وإنما أريد أن

أرسل اليك كتاباً كله حب وكله بر وكله حنان . فأين هذا مما أخذت
أهذى به وأخوض فيه ! . أفكُتبت علينا ألا تلتقي نفسانا فيطول بينهما
اللقاء ؟ أفكُتبت علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذي لا يخفى معه
من أحدنا شيء على صاحبه لا من حسه حين يحس ، ولا من شعوره حين
يشعر ، ولا من تفكيره حين يفكر ؟ ! أفكُتبت علينا أن تلتقي أجسامنا
وألا تلتقي نفوسنا إلا لحظات قصاراً في نظرات قصار سراع كأنما
نختلسها اختلاساً ؟ ! ولكن أفهمين عنى ما أقول ؟ أنحسين ما أحس ؟ أمجدين
ما أجد ؟ إنى لم أعود أن أتحدث اليك مثل هذا الحديث . وإنما تعودت
ألا أتحدث اليك إلا قليلاً ، وألا أتحدث إليك إلا في أيسر الأشياء وأدناها
إلى السخف وأشدّها اتصالاً بشؤون حياتنا المادية مما يمس شؤون البيت .
ما أذكر أنى تحدثت اليك في الحب ، وما أعلم أنك تحدثت إلى فيه . كنت
أرى أنك لن تفهمى عنى إذا تحدثت اليك بما أجد . وكان الحياء يمنعك من
أن تتحدثى الىّ ببعض ما تجدين . وكنا نكتفى بالنظرات الحلوة القصيرة
يملؤها الحنان . وكنا نكتفى بحلاوة الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات
حين نتحدث في أى شأن من الشؤون ليشعر كل منا بما يجد من الحب
والعطف ومن الخنو والإخلاص . وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة
في شؤونها المادية ، وكانت رمزاً أو شيئاً أشد غموضاً من الرمز فيما يمس شؤون
القلب والنفس والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئاً من حياة القلب
والنفس والضمير ؛ فلم نفكر قط في تحليل ما بيننا من صلة أو في تأويله
وتعليقه . ومتى كنا نستطيع أن نفكر في ذلك وقد كنت مشغولاً عنك

بالعمل والكتاب ، وكنت مشغولة عنى بالبيت ، وكنا لا نلتقى إلا لنتحدث فيما يتحدث فيه الأزواج من الأمور غير ذات الخطر التي لا تمس قلباً ولا نفساً ولا ضميراً . ماذا أقول ! وإلى من أكتب ؟ وإلى من أسوق هذا الحديث ؟ أترين أنك تفهمين عنى هذا الكلام ؟ ما أظن ! فكيف تفهمينه وأنت تسمعيه لأول مرة ! ومع ذلك فإنني شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسى بهذا الأسلوب العسير الدقيق ، وعلى هذا النحو الذى لا ينقصه العوج ولا الالتواء .

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر هذا المعنى الذى أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب ؛ فقد كنت أريد أن أنبئك بأنى لم أستطع أن أستقر فى بيتنا بعد فراقك ؛ لأننى وجدت فيه وحشة نفتنى عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلاً ، فهمت فى المدينة وتلمست الساوة عند الأصدقاء بقية النهار وطول الليل . ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك فى هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب فى الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء .

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر هذا الكتاب ؛ فهو يسير سهل كما ترين ، ولكنى مع ذلك لم أكّد آخذ فيه حتى تعقدّ والتوى بى أو التوى على ، ودفعتى إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بى عن الغاية ولم أخلص منها ، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء . وكذلك أنا فى حياتى الشاعرة مضطرب ملتو كثير الاستطراد ، لا أفكر فى شيء إلا أثار لى أشياء ، ولا آخذ فى مذهب إلا

التوى بي إلى مذاهب تشق شقاً من نواحيه ؛ فأنا أيا من مرة وأيا من أخرى ،
وربما نسيت الطريق التي أخذت فيها أول الأمر ، ومضيت في الاستطرد
إلى غير أمد .

وكذلك أنا في حياتي العملية ، لا آتي أمراً إلا أثار لي أموراً وفتح لي
أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً . ولعلني ألج واحداً منها فلا أخرج
منه ، وإنما تفتح لي أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين أفكر ، وأنا مضطرب
حين أعمل ، وأنا مضطرب حين أقول . والغريب أني أستطيع مع هذا
الاضطراب كله أن أعرف لحياتي وحدة وأن أتبين لها طريقاً متشابهة تنتهي
أو تريد أن تنتهي إلى غاية مقارنة . ماذا أقول ! هأنذا قد بعدت عنك
وعما أكتب إليك من أجله ، وفرغت لنفسي أو شغلت بها ؛ فأنا أدرسها
وأسرف في درسها وتحليلها ، وإن كنت أعلم أن لدى من الوقت ما يكفي
للنظر في المرأة ولأرى هذه النفس التي أحب وأكره أن أراها . وليس
لدى من الوقت ما يسمح لي بالتحدث إليك فيما أريد إلا القليل . ومن
يدري ! لعل نفسي غير الشاعرة التي تجور بي عن القصد وتتحرف بي عن
الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضي إلى الغاية التي من أجلها أكتب ،
تشفق عليك وتشفق عليّ أيضاً . فإن الأمر الذي أريد أن أتحدث
إليك فيه ثقيل خطير ، ما أحسب أنك تقوين على استماع حديثي فيه ، وما
أشك في أني محتاج إلى شيء كثير جداً من الشجاعة والجلد لأمضي في هذا
الحديث . وكذلك ترفق نفسي غير الشاعرة بنفسى الشاعرة ، وتحميها من بعض

ما تكرهه ، وتريد أن تؤخر عنها العذاب . فما أشد سلطان الأثرة علينا ! وما أشد استثثار الضعف بنفوسنا ! وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولا سيما حين نزع أننا أقوياء ، وحين نريد أن نظهر الناس على أننا أقوياء ! ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل ، ولما دفعت إلى هذا القول الملتوى حين أحاول أن أنبئك بنبأ مهما يكن ثقيلاً خطيراً فهو واضح لا غموض فيه ، ولكن أستحي منك وأستحي من نفسي وأشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام . فلا تشجع إذاً ولتتشجعي أنت أيضاً ، ولأفل إذاً ولتسمعي أنت ما أريد أن أقول ! إن القلم ليضطرب في يدي ، وإن يدي لتجمد فلا تكاد تتحرك ، وإني محتاج إلى أن أكف عن الكتابة حيناً لأسترد القوة والجرأة والنشاط . وهأنذا أستأنف الكتابة وأدافع نفسي دفاعاً شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد ، ولأكرهها على المضي فيما تلمس الفراغ منه ، ولأحملها على أن تقسو عليك وعلى فتلقى إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقي بعد اليوم .

أف ! لقد أقيت العباء وتخففت من النقل ، واستطعت أن أتنفس في غير حرج ولا ضيق ، وأحسست بأنني أصبحت طليقاً حرّاً وقد كنت مقيداً مغلولاً ؛ لا لشيء إلا لأنني أقيت إليك هذا النبأ بعد أن كنت أنت تخرج من إلقاءه ، وأصبحت ملزماً أن أعلم لك وأن أفسره وأن أردد عن نفسي ما سيثور في قلبك من الشبهات . وأنا أعلم أنك لن تصدقيني ولن تؤمنني لي ولن تقبل شيئاً مما أقول . ولكنني أقسم مع ذلك ما طلقتك عن قلبي ولا

فارتكتك عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك . وإني أقسم ما أحببتك
قط كما أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما أوثرك الآن ، وما عرفت سلطانك
عليّ ويدك عندي كما عرفتهما الآن . بل أقسم إني لأحس كأنما أشطر قلبي
شطرين ، فأحفظ شطره في صدري وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد
في أعماق الريف حيث لا يتاح لي أن ألقاه . بل أقسم ما طلقتك إلا حباً
فيك وإيثاراً لك وضناً بك علي ما أكره . ولأكن صادقاً كل الصدق ؛
فإن الضعف والعجز والخور ، كل هذه العيوب هي التي تدفعني إلى أن
أفارقك أشد ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون عليك حرصاً . لم أستطع
أن أوثرك علي أوروباً فأبقى معك ، ولم أستطع أن أطمئن إلى أني سأكون
وفياً إذا عبرت البحر فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج . ولست أريد هذا
الوفاء الخُلقي الذي يتصل بالنفس ، فأنا واثق بأنني قادر عليه ، بل أنا واثق بأنه
سيعذبني وسيكفني آلاماً وأسقاماً . إنما أريد الوفاء الكامل الشامل الذي
يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم أيضاً . أريد هذا الوفاء الذي
لا يبيح شركة ولا توهماً للشركة ولا تفكيراً فيها . وأنا آسف أشد الأسف
محزون أشد الحزن ، لأنني أعلم أني سأعرض للفتنة إذا عبرت البحر ، وأن
بعض الملحظ سيمس قلبي ، وأن بعض الجمال سيستهويني ، وأن بعض الشر
سيدفعني إلى شيء من الغي . وما أحب أن أعرضُ حبك ، أستغفر الله ، بل
ما أحب أن أعرضُ زواجنا لهذا الإثم والفساد . لا أستطيع أن أخفي عليك
ما قد أقترف من إثم ؛ لأنني لم أعودك ولم أعود نفسي الكذب . ولا أستطيع
أن أعترف لك بما قد أقترف من إثم ؛ لأنني إن فعلت آذيتك في غير حق

وفي غير جدوى ، وعرضت ما بيننا للفساد . وأنا إن كذبت عليك أهنت
نفسى بالكذب . وإن اعترفت لك أهنت نفسى بالاعتراف . وإذا فملى
لا أستقبل الحياة شجاعاً جريئاً مستمتعاً بلذاتها محتملاً لتبعاتها !! كم كنت
أريد أن أكون قوياً قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الإثم ، وأحفظ بقلبي
طاهراً نقياً ، وبجسمى عفيفاً نظيفاً ، وأردما إليك بعد العودة كما ارتحلت بهما
عنك أول الرحيل ، ولكنى عاجز عن ذلك ، أو عاجز عن الاطمئنان الى ذلك .
والغريب أن من الممكن أن أعبر ببحر الغواية ولا أغوى ، وأن أفضى أعوام
الغواية نقياً طاهر القلب ، وأن أكون قد شققت على نفسى بهذا الحرج
وحملتها ما كنت أستطيع ألا أحملها . هذا ممكن ، ولعله أن يكون . ولكنى
لا أكتفى بالممكن ولا أطمئن إلى الظن ، إنما أريد الثقة ولا سبيل إليها ، وأطمع
في اليقين ولا أمل فيه . ولهذا أتكلف ما أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم .
أترين أنك فهمت عنى ؟ ما أظن ! ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟
أترين أنك صدقتنى ؟ ما أظن ! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟
يا للحزن ويا للأسى ! لمن أكتب هذا الكتاب وإلى من أسوق هذا الحديث !
إنك إن قرأته فلن تفهميه ، وإن فهمته فلن تقبله ، فكيف وأنت لن تقرئيه !
إني لغافل ذاهل ، إني لمدله مجنون . لقد أنسيت أنك لا تقرئين ولا تكتبين
فن الذى سيقراً عليك هذا الكتاب ويفسره لك من أهل الريف ؟ . كلا
لن أنمه ولن أرسله إليك ، ولن تعامى من أمرى إلا أنى رجل قاس غليظ
مسرف فى كفر النعمة وجحود الجليل ! متتبع للأهواء والشهوات ، لا أنخرج

من شيء ولا أعرف لجروح نفسي غاية تنتهي إليها أو حدًا تقف عنده .
سيسقط النباء في أسرتنا كما تسقط الصاعقة ، وسيُلقونه إليك في عنف أو في
لين ، وستجزعين وتظهرين التجلد ، وسيبكي قلبك وتتكاف عينك الجلود .
ثم ستمرّ الأيام ، وستحرسين على أن يصل إليك بعض أنبأى دون أن يُعرف
منك هذا الحرص . ثم سيأتى الخاطبون . كلا ! لا أريد أن أمضى إلى أبعاد
من هذا الحد في التفكير ؛ فما أرى أنى أقوى على هذا المضى . لقد أبطأ على
صاحبي ، وكنتنى انتظاراً طويلاً . ليته يقبل فيخرجنى من هذا العناء .

قرأ غلامى الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف عنى صاحبي .
فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له ، وسألت نفسي كيف يكون موقع
هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه !

١٢

يوليو فى

لم تفارقنى صورتها بعدُ أيها الصديق العزيز ، ومع ذلك فقد مضت أيام
وأيام منذ انصرف بها القطار إلى قريتها فى الريف ، وحدثت بعد ذلك
أحداث واختلفت شؤون ، فلقيت من لقيت وتحدثت إلى من تحدثت إليه ،
وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير ، ثم كانت الرحلة وهبطت فى القطار
إلى البحر ومضت فى السفينة إلى ماوراء البحر ، وهانذا أكتب إليك فى
غرفة من غرفاتها . وشهد الله ما فارقتنى صورتها أثناء هذا كله فى يقظة
ولا فى نوم .

ولقد سألت نفسي منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه للصديق . وسألت نفسي حين عرفتك فأحببتك ، وحين فارقتك فجزعت لفراقك ، عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك ، وعرضت على نفسي أجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت أطمئن إلى بعضها حيناً ثم أدعه ، وكنت أنصرف عن بعضها الآخر حيناً ثم أعود إليه . ولكن الحياة نفسها قد أجابت على هذا السؤال جواباً ما أحسب أنى سأتحول عنه . فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق وخير ما أتمناه للعدو إن طابت نفسي وأحببت للعدو خيراً ، هو أن يجنبك الله أسباب الندم ، ويعصمك من الاضطرار إليه والإيغال فيه . فلست أعرف المأ أشد ولا حزناً أذع ولا عذاباً أمض ولا شقاء مفسداً للحياة كهذا الذى يثيره الندم فى نفس الرجل الذى يقدر من الأمر ما يأتى وما يدع .

وإني لأقول لك هذا عن علم ، وأتحدث به إليك عن تجربة . وأى تجربة ! تجربة وددت لو أنى تحملت كل ما ذقت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع إليها . فيالها من منغص ما كر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل أمل ، ويأخذ عليك كل طريق ، ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه ، فإذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهى بك إلى اليأس المهلك ، جلا عنك غمراته ، ونفس عن قلبك وعقلك بعض الشيء ، وخيّل إليك أنك قد رُدِدت إلى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق . ولكنك

لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن إلى بعض الأمن ، حتى يمسك هذا الشيطان الخفي مساً رقيقاً ولكنه عنيف ، ليناً ولكنه يبلغ غاية القسوة . يحجز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلاً خفيفاً لا يكاد يحس ، ولكنه يذكرك بمكانه وينبهك إلى أن في هذا الهواء الطلق راحة لجسمك إن تنسّمته مطمئناً فارغ البال . ولكن يجب عليك ألا تطمئن وألا يفرغ بالك ؛ فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً ، وإنه دان منك كل الدنو وإن حسبته نائياً عنك كل النأي . فإن كنت في شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذي تجده ، ما هو أو من أين يأتيك ؟ فستعلم أنه مس هذا الشيطان وألم هذا الندم الذي إن رفّه عليك فإنه لم ينسك ، ولا ينبغي له ولا ينبغي لك أن تظن أنه سينسك .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة في الحديث مع من يحسن معه الحديث ، وفي التفكير فيما يحسن فيه التفكير ، ولكنه كفيل أن ينغض عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيعة الضئيلة التي يمسك بها في ناحية من نفسك ، فإذا أنت تقطع الحديث فجأة وتنصرف عن التفكير فجأة ، كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيم الذي يغدّي عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وأدب وفن ، والذي تود لو تقنى فيه فناء وتمتزج به امتزاجاً وتنسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان ، ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا ،

وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها ، فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب ، وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع إلى السماء ، وإذا أنت واجم قد أنسيت ما كنت فيه ، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معاً ، فيه انصراف عن كل شيء ، وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء . وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكرراً وأدق حيلة؛ فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقيه من يدك ولا يحوّل عنه عينيك ، ولكنه يسارك في القراءة كأنه الرفيق ، و يلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ ، فإذا هي تختلط بما تقرأ ، وإذا هي تحوّل نفسك عما في الكتاب ، وإذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شيء مما تقرأه إلى نفسك .

وقد يغلو هذا الشيطان في المكر بك والكيد لك ، فلا يسارك في القراءة ، ولا يلقى في نفسك كلمات ولا خواطر ، ولا يصرفك عن الكتاب ، وإنما يصرف الكتاب عنك صرفاً ، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال ، تراها وأنت كاره لرؤيتها ، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد إلى ذلك سبيلاً . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك . والكلمات أمام عينيك ولكنها تفر منك . هي تفر وأنت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقى بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان فلا يتكلف في تعذيبك جهداً ولا عناء ، وإنما يداعبك في رفق ويلاعبك في استهزاء .

فأنت في حديثك أو في تفكيرك أو في قراءتك ، وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تترامى لك ، فتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ ، ثم لا تلبث أن تنجلي عنك في سرعة البرق الخاطف ، فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ما تزال بك مقابلة مدبرة ، وسانحة بارحة ، وملمة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ، ويشق عليك ولم تدركه المشقة ، ويؤسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ، ينظر إليك في احتقار وازدراء ، وفي سخرية واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قريتها في الزيف . ومازلت أجده الآن والسفينة تمضي بي إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنوناً من السير ، تجاهده جهاداً عنيفاً حين يهيج وتضطرب به أمواجه وتعصف به الرياح ، وتداعبه دعاية حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على سطحه النسيم . وكم منيت نفسي منذ أخذت أتهيأ لهذه الرحلة أن أجد هذه اللذات المتباينة التي يجدها المسافرون فيما يكون بين السفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووثام . ولكن هذا الشيطان قد حال بيني وبين ما كنت أتمنى من ذلك ، فأفسده على "إفساداً ونفصه على" تنغيصاً . ولو أنه ألقى بيني وبين ما أريد من ذلك حججاً صفاً وأستاراً كثافاً لهان الأمر وللكان اليأس منه مريحاً ، ولكنه يشرف بي على اللذة إشرافاً ويعن بي فيها إمعاناً ، ثم يقطع أسبابها قطعاً ، ويصدني عنها أو يصددها عني

أشد ما أكون كلفاً بها وإندفاعاً إليها واستعداداً لإجتناء ما هيأت لي من ثمرات .

جنبك الله الندم أيها الصديق ، وعصمك من أثقاله فإنها لا تحتمل ، ومن آلامه فإنها لا نطاق .

ولست مع هذا كله مبغضاً لشیطان الندم ، هذا الذي يعذبني ، ولا منكراً عليه ؛ فأنا أعطى الحق من نفسي وأقبل راضياً أو كارها ما ليس من قبوله بد . فأنا قد اقترفت الإثم ، ولا بد من أن أحتمل أثقاله وأنجرح آلامه . والإثم عندي شجرة لا بد من أن تؤتي ثمرها إذا صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار . وإنما تصادف الخصب وأسباب النمو والإثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دقيقة الحس قوية الشعور . والندم عندي آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات سمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنيات ، ودليل من أدلة خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه . وإني لأبغض النفوس المجذبة التي لا تعرف ألماً ولا ندماً ، والتي تموت فيها أشجار الآثام والخطايا ، كما يموت النبات في الصحراء المحرقة المهلكة .

وإني لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيئ الرديء ، التي تفرس فيها أشجار الخطيئة والإثم ، فلا تموت ولا تجف أعوادها ، وإنما تثمر خطايا وآثاماً .

أترى أيها الصديق أني مغرور مسرف في الغرور ! أتعزى عن الألم والندم

بتزكية نفسى، وأكاد لا أكره ما أقترف من الآثام لأنه يشعرنى بأنى كريم
النفس نبيل الطبع نقي الضمير ! ولكن لا تنكر على هذا الغرور، ولا تلغى
فيما ألتس لنفسى البائسة من ضروب التسلية وألوان العزاء . فلولا هذا
الغرور لأهلكنى ما أجد من الحزن ، ولقضى على ما أحس من الندم ،
ولدفعت إلى اليأس المهلك دفعاً .

وإنى لأعجب كيف انجلت عنى غمرة الأمل وُصرفتُ صرفاً عن هذه
الخيالات الحلوة التى كنت أخلقها لنفسى خلقاً ، وأستعين بها على ما كنت
مقدماً عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة فى فرنسا ، وما
تدخر لى من لذات مختلفة لا تفتنى . فأنا أحاول الآن أن أتصور هذا البلد
الذى أنا مقبل عليه ، فلا أرى الا هذا البلد الذى أنا منصرف عنه .

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى الا جامعتكم المصرية . وأحاول أن
أتمثل رفاقى من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ . ثم أحاول
أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا القاهرة . وأحاول آخر الأمر أن أضلل
نفسى وأعلها وأمنيتها الأمانى الآتمة ، أحاول أن أتمثل المرأة الباريسية فلا
أرى إلا حميدة قائمة أمامى كهيتها يوم كانت تستعد للرحيل فى بكاء متصل
وصمت عميق .

مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن أنظر إلى وراء . فلا تلغى
إذاً حين أعجز عن أن أخرج من نفسى، وعن أن ألتس العزاء إلا فيها ؛ فأنا
أتلهى بهذا الغرور عن هذه الأهوال المنكرة التى تأخذنى من كل مكان

وتسعى إلى من كل صوب . ومالى لا آلم ولا أندم ولا أتجشم من ذلك أهوالا وقد اقترفت إثمًا عظيمًا حقاً ! لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصور لك من هذا الإثم : إثم الطلاق ، إلا أيسره وأهونه . لم أصور إلا ما فيه من ظلم البريء والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء ، وقد لقيت منك مع ذلك لومًا شديدًا وإنكارًا عنيفًا ، ونبوءًا كاد يفسد ما بيننا من الود ، فكيف لو صورت لك حقيقة هذا الإثم الذى اقترفته ! وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذى أخفيته عليك ! .

لقد أفلت منك أيها الصديق ، ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت الأسباب بين حميدة وبنى ، وبعدت بى الدار ، فلا أمل الآن فى إصلاح ما فسد ، ولا خوف الآن من أن تصدنى عن الرحيل . الآن أستطيع أن أظهرك على نفسى كلها .. والآن أستطيع أن أنبئك بإثمى كله ، وأنا أعلم أنك ستحتقرنى وستزدربنى . وما يعينى من ذلك وأنا أحتقر نفسى وأزدربها ! فان يصرفنى احتقارك إياى وازدراؤك لى ، ولن يصرفنى احتقارى لنفسى وازدراؤى إياها عن أن أتمثل هذا الإثم القبيح وأملأ به خلوتى ، وأنفى بآلامه فيما بينى وبين نفسى غذاء قبيحاً منكراً بشعاً أكرهه أشد الكره ولكن أمعن فيه أشد الإمعان .

لن يصرفنى ازدراؤك لى وازدراؤى لنفسى عن هذا كله ، وعن أن أسجل نغمات هذا الغناء البشع فى هذا الكتاب الذى أرسله اليك .
لست ظالمًا فحسب أيها الصديق ، ولكنى كافر للنعمة منكر للجميل .

فلم تكن حميدة زوجي فحسب ، ولكنها كانت منعمة على منقذة لي .
رضيت بي بعد أن نبذني غيرها ، ومنحتني ودها وحبها بعد أن أعلن غيرها
أني لست أهلاً لود ولا حب .

إن لهذا قصة لم أنساها ولن أنساها ، لأنها مزقت نفسي تمزيقاً ، وعذبت
قلبي تعذيباً ، وآذتني في أعز شيء علي وهو الغرور والاعتداد بالنفس .
لقد كان أبواي كغيرهما من أهل الريف يُعدّانني لعروس غير حميدة .
وكان أهل هذه العروس يُعدّون ابنتهم لي منذ نشأنا صبيين . وكانت الفتاة
ابنة عمي ، ولم تكن جميلة ولا وسيمة ، ولكنها على ذلك كانت محببة إلى
أثيرة عندي ، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث الزواج .

ولكنك لم تر وجهي ولا شكلي أيها الصديق . وأكبر الظن أنك
عرفت من صوتي أنني قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن
أروق العذارى ، وأرضى أهواء النساء . ولم أكن أرى ذلك في نفسي ولا
أعترف به عليها . ومتى رأيت رجلاً قبيحاً دميماً يؤمن بأنه قبيح دميم ! ولكن
فهيمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه أشد النفور ، وكانت تكره أن
يتحدث إليها أهلها وأترابها بأمر الزواج ، ولكنها لم تكن تظهر الكره
وتعلن الإنكار ، حتى إذا جد الجد وتقدمت بها وبى السن ، وأخذ أهلنا
يفكرون ثم يتحدثون في أمر الخطبة ، جهرت بالرفض جهراً وأعلنت الإباء
إعلاناً ، وخرجت في ذلك عما هو مألوف من أمثالها من فتيات الأسر في
الريف ، فنبت على أمها تبواً وامتنعت على أيها امتناعاً ، وأعلنت أنها تؤثر
الموت على أن تكون زوجاً لهذا الشاب الدميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى وأثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور. ثم تصور أن حميدة كانت أروع من ابنة عمى جمالا وأكثر منها مالا ، وأذكى منها قلباً وأحسن منها مستقبلاً ، وأنهما مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته وأظهرت إنكارها ، وتعمدت أن يصل حديث هذا الإنكار إلى أهلى ثم إلى ، وكان هذا الإنكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الحظية ثم وسيلة الزواج . وما زالت فيهمة تنتظر الزوج الى الآن ، ولكن حميدة قد طلقت . فانظر الى الإحسان كيف يكافأ بالإساءة ، وإلى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق ! ومع ذلك فانى لأنظر الآن فى المرأة أمامى فأستكشف فى وجهى وخلفى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر وعذر لابنة عمى ، وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف أنى أسافر على سفينة انجليزية؟ فقد تهبأت لهذه السفينة وأنبأنى المنبثون بأن المسافرين على السفن الانجليزية إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصا لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذهُ المترفون . فلما أقلعت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت ما يتصل به من زينة ، وكانت صورة حميدة لا تغارقنى ، وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين إلى حين . فلما تهبأت للخروج من غرفتى سمعت فهيمة تنكر قبجى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير إلى . هنالك نظرت فى المرأة فرأيت ، ثم استحجيت

ثم بكيت ، ثم نزعت هذا اللباس نزعا ، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء . ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بأن آكل فى غرفتى . وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء ؛ فما أرى منذ الآن إلا أنهن جميعاً فهيمة .

أترى الى أى حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبماله من حس وشعور ؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً ، وان تعرف حميدة أنى أجد من الندم على فراقها ما يفسد على حياتى إفساداً ، ويوشك أن ينتهى بى إلى شر ما ينتهى اليه الأحياء .

ليتنى سمعت لك ! وليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر ! فما أظن الا أنى مقدم على سراب أحسبه ماء ، حتى إذا بلغته لم أجده شيئاً .

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق ، ولا بدلك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ما نأتى من الأمر ، وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله . فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمرى إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه . وكنت أظن أن أكثر من عرفتهم فى القاهرة وعرفونى يجولون أمر زواجى جهلاً تاماً . وكنت واثقاً بأنى أستطيع أن أكذب على الجامعة إن أردت ، وأن أزعم لها أنى أعزب وأن أمسك على زوجى وأسافر إلى أوروبا لأصطحبها . وكنت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب الجامعة . ولم يكن يدفعنى إلى هذا إلا حب الصدق وإيثار الخلق والضم بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفى . وكنت أحمد من

نفسى هذا الإقدام على التضحية ، وهذا النصح للجامعة ، وهذا الإلحاح فى أن أكون صادقاً معها فى السر والعلانية معاً .

وكثيراً ما وجدت فى هذه التضحية التى كنت أحبها وأرضى عنها مظهراً من مظاهر الغرور ، ومصدراً من مصادر العجب والتهيب والإكبار للنفس . وكنت أقول لنفسى إذا خلوت إليها : ليس كل الناس قادراً على أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد . فأنا إذاً شخص نادر وفرد ممتاز . ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخلقى ، كما أنها ستفخر بعد قليل بجدى واجتهادى وكفائتى فى البحث وقدرتى على الدرس والتحصيل . وكان هذا الخاطر الجليل يملأنى ثقة بنفسى وإكباراً لها ورضاً عنها . ولعل ذلك كان يظهر فيما كنت آتى من حركة وما كنت ألقى من جمل . بل لعل هذا كان يظهر فيما كان وجهى يأخذ أحياناً من الصور والأشكال . ولكن لا تسلم عما أدركنى من الدهش ، وما أصابنى من خيبة الأمل ، وما ملأ قلبى ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعانى سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائى ، ولم يتكف الأانس بمقدمى ، كما كان قد تعود من قبل ، وإنما لقينى فاتراً وحدثنى بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما أنكرت ، ثم لم يلبث أن ألقى على حديثه قصيراً متقطعاً سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضاً ، وقد اتخذ صورة الأستاذ ولهجته ، وصوت الواعظ الغالى فى التأنيب ، فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة ، وما ينبغى له أن يعش وهو الأسوة

وقد كانت الجامعة مخدوعة لى . فالآن وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فى زهداً ، وأن تنصرف عنى انصرافاً . وبين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون ان يشغلوا مكاني فى البعثة ، وأن يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين ، ومخلصين غير متورطين فى الغش ولا متكلفين للخداع . والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل عن إرسال البعوث ، وأن تغلق أبوابها إغلاقاً فى سبيل الطلاب الذين يختلفون إليها على أن تهيب للامة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والغش ، وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضقت بهذا الواعظ الثرثار ، وتعجلته إتمام الحديث والانتهاء إلى ما يريد . فلم يتردد فى أن يلقى إلى ما عنده إلقاء فيه كثير من الازدراء . قال : زعموا أنك متزوج ياسيدى ، وقد زعمت لنا أنك حرٌّ طليق .

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق ، وما أدرى أتغفر لى ؟ فقد أسأت بك الظن واتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصاً حسن النية تريد أن تحول بينى وبين الظلم ، كما أقدمت أنا على تطليق حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الخيانة والإثم .

نعم ! أسأت بك الظن واتهمتك ، ورأيت ما بيننا من الصلات وقد تصرم وتقطعت أسبابه ، وأحسست شيئاً من الحزن لسكذب ظنى بك وخيبة أملى فيك . وكان هذا كله سريعاً مسرفاً فى الإسراع لم أكد أتنبه إليه ،

ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن شيئاً غيره وغير حديثه كان يشغلني . فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف ؟ ومن ألقى إليك هذا الهذيان ؟ وكيف تسمع الجامعة لكل ما يلقى إليها من القول ! وكيف تصدق كل ما يرفع إليها من الحديث ! وما ينبغي لك أن تلومني هذا اللوم ، وتؤنبني هذا التأنيب قبل أن تتحقق أنك تتهمني بما لا أستطيع له دفعاً ، وتأخذني بما لا أجد منه مخرجا !

قال الرجل : مهلاً يا سيدي ، فليس يعني عنك ما أنت فيه منذ الآن من التجاء إلى الجدال وشغف بالمرء ؛ فقد ألقى الينا أنك متزوج ، ثم ألقى الينا اسم الأسرة التي أنت مصهر إليها ، فلم نأخذ بالظنة ولم نطمئن إلى الريبة ، وإنما بحمنا واستقصينا وسألنا حتى تبين لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضلللتنا تضليلاً . وما دعوناك اليوم إلا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة ، فنرد إليك ما أخذنا منك ، ونسترد ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب إلى عقلي كله ، وحرصى على البعثة : قد كان ذلك ممكناً منذ أيام ، أما الآن فلا . ثم قدمت إليه صك الطلاق . فلم يكده ينظر فيه حتى تغيرت حاله معي تغيراً تاماً ، وإذا هو يصاحفني مكبراً لي معجباً بي . ألم أقدم على عمل خطير ! . ثم تبسط معي في الحديث وقد ضم الصك الذي دفعته إليه إلى ما ينبغي أن يحفظ من أوراق عنده ، وما زلت أنتلطف له وأمكر به ، حتى أطلعني على ذلك الكتاب الذي ارتفع إليه بالتميمة وأنباه بزواجي . فقرأت وياشراً ما قرأت ! وعلمت وياشراً ما علمت ! علمت أن

صاحب هذا الكتاب صديق لي متصل بي ، يتكاف المودة ويظهر النصيحة والإخلاص ، ولكنني علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب ولا مقترف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضياً ساخطاً ومسروراً محزوناً . راضياً لأن البعثة لم تغفلت مني ، وراضياً لأنك أنت لست الواشي بي . وساخطاً لما انطوت عليه جُنوب الناس من المكر والخداع ، ومن الكذب والنفاق ، ومن الحسد الذي يفسد عليهم كل شيء .

فلم يكن لهذا الصديق الذي وشى بي طمع في البعثة ولا طموح إليها ، وإنما هو الحسد وحده . رأى أنني سأسافر إلى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر ، ورأى أن حالي قد تتغير وأن حياتي قد تصلح ، وأنه قد أرتقي إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو إليها ، فكره ذلك وضاق به ، ثم جد في أن يحول بيني وبين ذلك ، وأن يمسكني في المنزلة التي أمسكته فيها الظروف ، فأبقى مثله خاملاً متواضعاً محدود الأفق من البيت إلى الديوان ، ومن الديوان إلى البيت ، والقهوة بين ذلك أحياناً .

نعم أيها الصديق ! خرجت راضياً وساخطاً ، وأنا لا أفكر حين كنت أحس الرضا أو أجد السخط إلا في شيء واحد ، وهو أن كيداً كان يكاد فخلصت منه ، وأن مكرراً كان يمكر بي فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم في نحورهم . ثم هبط بي القطار إلى البحر ، وأخذت السفينة تمضي بي إلى ما وراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمني وتلح عليّ ، وأخذت الندم

يشير في نفسى من الخواطر ما يثير ، وإذا أنا الآن أسأل نفسى عن هذه
الوشاية التى أنكرتها : ألم تكن خيراً قد صُرف عنى وحيل بينى وبين
الانتفاع به ؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بينى وبين البعثة لكان
هذا الإخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب ، ولكان نذيراً بما كان
ينتظرنى من الشر إن تمت على ما بدأت من الظلم ، ولكان خليقاً أن
يردنى إلى حميدة أو أن يُردّ حميدة إلىّ . ولكن الله لم يردّ إلا أن يقدم
بين يدى هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرنى فيها من الآلام ، وطلبة لما ينتظرنى
وراء البحر من الشر .

وصدّفتنى أيها الأخ العزيز إنى لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجلاً شديداً
التساؤم ، لا أنتظر خيراً ولا نجحاً ، وإنما أنتظر شرّاً كثيراً وإخفاقاً شنيعاً .
ولو طواعت نفسى لما استقررت فى مرسيليا إلا ريثما آخذ السفينة التى
تردنى إلى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ؟ وماذا أقول لنفسى ؟ وكيف
ألقى غيرك من الأصدقاء الخالصين ومن الأعداء الشامتين ؟ وماذا أقول
لأهلى وماذا أقول لحميدة ؟ أمضى فى فراقها ؟ ولماذا وأنا لم أفارقها عن
قلى ولا عن بغض ؟ أم أعود إليها نادماً بأسأ معتذراً مستغفراً ؟ ولكن
أسمع لى ؟ أتعطف على ؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذى هو بالهذيان أشبه
منه بالجد ؟ إن السفينة لتمضى أمامها لا تلوى على شىء ، ولن تقف حتى تبلغ
مرسيليا . ولو أردت أن أقفها لما بلغت من ذلك شيئاً مهما يكن إلحاحى
وصياحى ، ومهما أتخذ من وسيلة عند القبطان . وإنما حياتنا كهذه السفينة

تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث تريد . ومهما نلح ، ومهما
نصح ، ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها إلى وراء ،
ولن نتقى الانتهاء إلى هذه الغاية التي رسمها لنا القضاء .

فلأَمْضِ إِذَا إِلَى حَيْث تَرِيدُ السَّفِينَةَ أَنْ تَنْتَهِيَ بِى . وَمَنْ يَدْرِى ! لَعَلَى
أَعُودِ إِلَيْكَ بَعْدَ حِينٍ وَلَمْ أَرِ بَارِيسَ ، وَلَمْ أَخْتَلِفْ إِلَى السَّرْبُونِ ، وَلَمْ أَشْهَدْ أُنْدِيَةَ
اللَّهُوِ وَالْمَتَاعِ . وَمَنْ يَدْرِى ! لَعَلَى لَا أَعُودُ إِلَيْكَ حَتَّى آخِذَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِحِظِّ .
وَكُلُّ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْطِعَ بِهِ الْآنَ هُوَ أَنَّ هَذِهِ السَّفِينَةَ الَّتِي تَعْبُرُ بِى بِحَرِّ
الرُّومِ ، سَتُوفِي بِى مِنْ بَعْدِ بَحْرِ إِلَى بَحْرِ ، كَمَا يَقُولُ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ . وَلَكِنْ
الْبَحْرُ الَّذِي سَتُوفِي بِى إِلَيْهِ لَيْسَ هَذَا وَلَا ذَاكَ مِنْ أَوْلَثِكَ الْأَجْوَادِ الَّذِينَ
كَانُوا يُغْنُونَ الشُّعْرَاءَ ، وَإِنَّمَا هُوَ بَحْرٌ آخَرَ عَرِيضٌ لَا حَدَّ لِعَرْضِهِ ، عَمِيقٌ
لَا آخَرَ لِعَمْقِهِ . هُوَ بَحْرُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْأُورُبِيَّةِ الْمَمْلُوءَةِ بِاللَّذَّةِ وَالْأَمِّ ، الْمُنْعَمَةُ
بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ . فَلَيْتَ شَعْرَى أَرَسَبَ فِيهِ أَمْ أَطْفُو عَلَيْهِ ؟

الآن أحس أنى قد أطلت عليك . وإنما يذكركنى بك ويشير فى نفسى
الإشفاق عليك من الإطالة هذه الحركات التى أسمعها تكثرت من حولى فى
الغرف المجاورة وفى الطريق أمام هذه الغرف ؛ فقد فرغ السفر من لهوهم
ورقصهم وعادوا إلى غرفهم يقضون فيها ما بقى لهم من الليل .

وداعاً يملؤه الحب والود والحزن أيها الصديق ! فما أدرى ! لعلنى لا أكتب
إليك بعد هذا السكتاب .

أغسطس في ...

أحسست كأني أسمع صوتاً يناديني من بعيد، وكأني أدنو من هذا الصوت ، أو كأنه يدنو مني شيئاً فشيئاً . واستمر هذا الحس لحظة لست أدري أطالت أم قصرت ، ولكنني وجدتني قد قربت من الصوت أو قد قرب الصوت مني ، فإذا هو بين يدي ، وإذا أنا أسمع طرّفاً على الباب ، وإذا أنا أصبح دهشاً أو كالدهش بلغتني العربية الشعبية : «مين؟» وإذا الباب يفتح ، وإذا شخص يدخل خفيفاً رشيماً سريع الحركة ، سريع الكلام ، وإذا هو يقول في صوت امرأة : لقد أشفتك عليك ، ولقد حسبت أنك لا تفيق ، وإذا هو يسرع إلى النافذة فيجذب عنها الأستار ويفتحها ويأذن للشمس بالدخول . وأنا دهش ذاهل ، أدعو نفسي وأجمعها فتجتمع لي ، وأنظر وأشعر فإذا أنا في غرفة الفندق التي أويت إليها أمس حين تقدّم الليل . وإذا الخادم قد أقبلت تحمل إليّ طعام الإفطار ، وإذا النهار قد تقدّم حتى بلغ النصف أو كاد يبلغه ، وإذا أنا أثوب إلى نفسي وأذكر من أمرى ما كان قد ذاده النوم عني ، فأعلم أنني قد بلغت مرسيليا أثناء الليل أمس ، وأنني كنت متعباً مكثراً ما أريقت ، وأنني ذهبت إلى أول فندق دلني عليه ذلك الرجل الذي حمل أمتعتي ووضعها ووضعني معها في عربة وأخذ مني ما أعطيته من نقد وقال للسائق إلى فندق جنيف . وقد

بلغت الفندق بعد الساعة العاشرة ، فلم أقبل طعاماً ولا شراباً ، ولم أزد على أن أجت على ما وجهه إلى من أسئلة لم يكن منها بد ، وطلبت غرفة آوى إليها ، وأنبت أنى سأسافر من الغد إلى باريس . ثم لم أكد أبلغ الغرفة حتى خرجت من ثياب ودخلت في ثياب ، وأويت إلى السرير مسرعاً أتمنى لقاء النوم وأشفق كل الإشفاق ألا ألقاه . ولكنى لم أكد أنزلق في هذا السرير حتى أحسست راحة وهدوءاً ودعة لم أعهد لها قط . فأين هذا السرير الوثير الذى أتقنت تسويته مما ألفت في دارنا في ريف مصر ، أو في بيتي في القاهرة من هذا الفراش الحشن الغليظ . لقد خيل إلى أنى لا أنام على شىء أو أنى أنام على فراش من الزئبق . كان جسمى يضطرب في هذا السرير فلا يجد شيئاً يقاومه أو يثبت له ، إنما كان يغوص في الفراش غوصاً . ولم أكد أطيل التفكير في هذا ، ولم أكد أفرغ للتفكير في غير هذا مما شغلنى آخر أيامى في القاهرة وأكثر أيامى وليالى في السفينة ، وإنما أخذت أفقد نفسى قليلاً قليلاً ، ثم لم أشعر إلا بهذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى لم أكد أردد عليه حتى فتح له الباب ، وإذا أنا أرى هذا الشخص الرشيق .

والآن وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها ، وردت على اليقظة حسى كله وشعورى كله ، وذكرت في لحظة قصيرة جداً كل ما أنبأتك به أيتها الصديق ، أنظر فأرى الخادم ذاهبة جائية ، تهيم طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير ، فأخرج من غفلة النوم لأدخل في غفلة الذهول .

فأين أنا؟ وما هذه العناية بي؟ وما هذا الحرص على تيسير الأمور كلها لي؟ من زعم هؤلاء الناس أني في حاجة إلى عنايتهم هذه الدقيقة، وإلى رفقتهم هذا الغريب؟ هذا السرير الوثير، وهذه الخادم تحمل الطعام إلىّ وتفتح النافذة وتدني منى المائدة لأفطر في سريري، أتراهم ظنوا أني مريض! فما أحسب أنهم ظنوني غنيماً من كبار الأغنياء؛ فما كان وجهي لينبئ بذلك، وما كان شكلي ليدل عليه.

والفتاة تتحدث وتتحدث، والحديث ينبعث من فمها حلواً عذباً رقيقاً، أحاول الآن أن أتمس له تشبيهاً فلا أظفر بما أتمس، وإنما أصور لك الشعور الذي وجدته حين كان يصل هذا الحديث إلىّ ويغمرني فيملؤني دعة وراحة ولذة وهدوءاً. كنت أشعر كأن إنساناً يرسل إلىّ نفحات متصلة من الطيب تأخذني من كل مكان. وكنت أحاول أن أرد عليها بعض الحديث فلا أجد إلى ذلك سبيلاً؛ لأنها لم تكن تتمكنني من ذلك من جهة، ولأنني لم أكن أريد أن أقطع هذه اللذة من جهة أخرى. حتى إذا هيات لي كل شيء ودعتني إلى الطعام هممت أن تنصرف، فرددت إلىّ الرشد، وثبتت إلى نفسي وسألتها متردداً متلهفاً: أين تذهبين؟ قالت ضاحكة: أذهب إلى عملي. قلت: وما عملي ومن تكونين؟ أو ليس من عملي أن تمكثي معي حتى أفرغ من طعامي؟ قالت وهي تُفرق في الضحك: «أما عملي فهو هذا الذي رأيت والذي ترى. وأما أن أمكث معك حتى تفرغ من طعامك فليس من عملي وليس إليه من سبيل. وماذا تكون الحال لو أني مكثت

مع كل من أحمل إليه الطعام من أهل الفندق حتى يفرغ من طعامه؟ » .
ثم أرسلت إلى نظرة فيها دعابة وابتسامة يملؤها الظرف ، ومضت مسرعة
لا تمشى على الأرض وإنما تمشى في الهواء ، ثم أغلقت من دونها الباب
وتركتني ذاهلاً كالأبله أمام هذا الإفطار الذي تركته وقتاً غير قصير معرضاً
عنه إعراضاً ، ثم ناظراً إليه دون أن أقدم عليه .

وإني لفي ذلك وإذا الباب يطرق ، فأذن فتدخل الفتاة نفسها قد أقبلت
تحمل آنية الطعام . فإذا رأت كل شيء كما تركته منذ حين سألتني
دهشة عن أمري ، فأسرع إلى الطعام ضاحكاً وأنا أقول : ألم أطلب إليك
أن تمكثي معي حتى أفرغ من الإفطار ؟ لقد آبيت فلم أفطر ، وها أنت ذى
تعودين ، فانظري كيف أسرع إلى الطعام .

وكنت مزماً أن أسافر مع المساء إلى باريس ، ولكنني لا أدري لم غيرت
رأبي ، أو لعلني أدري لم غيرت رأبي ؛ فقد قضيت في القاهرة أياماً ثقلاً وأجهدني
عبور البحر لكثرة ما فكرت وقدّرت ولكثرة ما أرقّت . وليس ما يدعوني
إلى أن أسرع إلى باريس ؛ فليس الفصل فصل درس ، واللاغة الفرنسية
موجودة مسموعة حيثما وجهت من أرض فرنسا ، فما يمنعني أن أقيم في هذا
الفندق الجميل المترف أياماً أعود نفسي فيه حياة الفرنسيين ، وأخذ نفسي
بما لا بد من أن آخذها به من العادات والتقاليد حتى لا أظهر غريباً مضطرباً
حين أصل إلى العاصمة ؟ وما يمنعني أن أعود نفسي العبث في مياه البحر
على الساحل قبل أن أبعد في السباحة وقبل أن أضطر إلى مصارعة

الأمواج الضخام !. لأمكثُ إذاً في هذه المدينة أياماً أستمتع فيها بالراحة وأتمرّن فيها على الحياة الجديدة ، وأنعم فيها بدخول هذه الفتاة علىّ تحمل الإفطار إلىّ إذا أصبحت . فمن يدري أين يكون مستقري في باريس ! أجد غرفة كهذه الغرفة ، وسريراً كهذا السرير ، وفتاة كهذه الفتاة تحمل إلىّ الطعام في كل صباح ؟ وهذه المدينة وَسَطٌ بين الجو الأوربي الخالص والجو الإفريقي الخالص ؛ فهي على البحر الأبيض المتوسط ، وفي الانتقال الفجائي من جو إلى جو خطر على صحة الجسم ، وقد يكون فيه خطر على صحة النفس أيضاً . فلا صُطع الأناة ، ولأدعُ هذه العجلة فإنها لاشك من الشيطان . وما يمنعني أن أستأني وقد تركت مصر وجعلت من بينها وبينى بجرأ عريضاً ، فلست أخاف على البعثة ، ولست أخشى أن أُرَد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسى أيها الصديق من التعالّات والمعاذير ما أقنعني بأن الإسراع إلى باريس خطل وحمق ، وما حملني على أن أنبئ أصحاب الفندق بأنى سأقيم أياماً ، وعلى أن أقدم على الكذبة الأولى في حياتي الجديدة فأكتب إلى مراقب البعثة بأنى متعب محتاج إلى الراحة ، وبأنى سأبلغ باريس بعد أسبوع .

والغريب أنى قضيت النهار هادئاً مستريحاً ، لا أكاد أفكر فيما تركت ولا فيمن تركت ورأى قبل أن أعبّر البحر ، ولا أكاد أشعر بشيء من هذا الألم أو هذا الندم اللذين كانا يشغلان علىّ في السفينة ، واللذين صورتهما

لك تصويراً مخيفاً في آخر كتبي إليك ، واللذين كنت أظن أنهما سيملزمانني لزوم الظل . لم أكد أشعر بشيء منهما . ماذا أقول ! بل لم تتراء لي صورة حميدة إلا مرتين أو مرات قليلة . وكانت تتراءى لي من بعيد شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن ، ولكنني كنت أراها مسرعة كأنها لا تريد أن تقف عندي ولا أن تثبت لي .

وهأنذا أكتب إليك الآن بعد أن عدت إلى غرفتي وقد كاد يبلغ الليل نصفه ، ونظرت فاذا الغرفة قد هيئت لاستقبالي ، وإذا السرير قد هيئ لإيوائي ، وإذا دورق من الماء وكوب قد وضعاً على هذه المائدة الصغيرة التي تلي السرير . ما شاء الله ! ما تعودت مثل هذه العناية . ولقد كان الظمأ يوقظني في الريف ، واقتد كان الظمأ يوقظني في القاهرة ، فما كنت أجد إلى اتقائه سبيلاً إلا أن أتكلف النهوض والسعي إلى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التي كانت تبرد لنا الماء . فأما الآن فإن الظمأ يستطيع أن يهجم عليّ وأن يوقظني ، فسأعرف كيف أردّه ردّاً ، وكيف أعود إلى النوم كما خرجت منه لا أجد في ذلك جهداً ولا عناء .

على أنني لم أكد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادني من الظمأ في مصر حتى أحسست الظمأ ، فأصب شيئاً من الماء أحسوه في هدوء . ولكن ماذا ! إنه لا يرد عنى ظمأ ولا ينقع لي غلة ، وإني لا أجد له لذة حين أحسوه ، ولكنني أذكر قصة الأخطل وحديثه حين عرض عليه الماء في مجلس عبد الملك فقال : شراب الحمار .

ولست حماراً يا سيدي مهما يكن رأيك فيّ وفي ذلك الشيخ ، أو قل كنت حماراً قبل أن أعبر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق ، وصعدت إلى هذه الغرفة وأويت إلى هذا السرير ، وانعمست في فراشه الوثير ، وأدركني ما أدركني من النوم العميق ، وأيقظتني هذه الفتاة ذات الوجه المشرق والثغر المضيء والحديث الحلو والروح الخفيف ، نظرت فاذا أنا لم أبق حماراً ، وإذا أنا قد مسخت إنساناً أو قل صوّرت إنساناً إن كانت كلمة المسخ لا ترضيك ، ولكنني على كل حال قد دخلت النوم حماراً وخرجت منه إنساناً يحس ويشعر ويعقل ويذوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون . أصبحت إنساناً ، وذكرت قصة الأخطل ، فعفت شراب الحمار ، وآليت لا أرد الظماً إلا بمثل مارده به الأخطل . ولا تغضب يا سيدي ولا تثر؛ فأنا في بلد قلما يشرب أهله الماء . ولقد شهدت غداء الناس وعشاءهم ودهشت حين سألتني الخادم ماذا أريد أن أشرب ، فلما طلبت إليه الماء أظهر دهشاً لم يكن أقل من دهشي حين ألقى علىّ سؤاله . ثم أقبل علىّ بالماء ، وبعد لحظة حدّق النظر فيّ ، ثم قال : ألا يريد سيدي شيئاً من النبيذ؟ . فلما أبيت قال متبسّطاً في لغة أهل الجنوب ولهجتهم : « سيدي مخطيء فالماء لا ينقع الغليل هنا . » ثم انطلق وعاد إلىّ بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ . ونظرت فلم أر الماء في حجرة الطعام كلها إلا على مائدتي ، فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت أحسب أن الخادم إنما يرغّبني في النبيذ ترويجاً لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامي عرفت أن الناس يشربون النبيذ في هذا الفندق كما

يشربون الماء لا يدفعون له ثمنًا، أو هم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت إذا ياسيدي ألا أردّ الظمأ بشراب الحمار، وأزمنت أن أدفعه بهذا الشراب الذي لم أنتظر قدومي إلى فرنسا لأعرفه وهو الجمعة ، فأدق الجرس وأنتظر أن يطرق الباب وأن يفتح وأن تدخل على هذه الفتاة . ومن يدري! لعلّ لم أزد الماء ولم أفكر في قصة الأخطل ولم أبتغ هذا الشراب الحرام إلا تعلقاً لأدقّ هذا الجرس، ولتدخل على هذه الفتاة ، وليكون بينها وبينى طرف من حديث يقصر أو يطول . فقد جعلت أتهم نفسي في كل ما آتى وفي كل ما أريد منذ استيقظت ظهر اليوم . وإني لأتبين أن منظر هذه الفتاة وعذوبة حديثها وخفة روحها وحسن خدمتها ودخولها على مع الصبح وإذنها للشمس أن تعمّر غرفتي ، كل هذا هو الذي بطّأني عن باريس وحبب إلى المقام في هذا الفندق . فآنا إذا فكرت أو قدّرت أو هممت أو فعلت ، أسأل نفسي لعل من وراء هذا التفكير والتقدير ولعل من وراء هذا الهم والفعل غرضاً خفياً غير ما توخيت من الأغراض الظاهرة . والباب يطرق وأنا أعلن الإذن بصوت مرتفع تظهر فيه الלהفة وقليل من الاضطراب . والباب يفتح، ولكن ماذا أرى! أرى رجلاً شاباً قد أقبل فاتراً متثاقلاً وقال في صوت خافت يملؤه الكسل والسأم والضيق : سيدى يريد ؟ قلت وأنا أتكلف كظم ما يملؤني من الغيظ وإخفاء ما لا أشك في أنه ظهر على وجهي وفي عيني من خيبة الأمل ، قلت وكأني ألقيت في وجهه ما قلت إلقاءً : أريد زجاجة من الجمعة . قال : نعم صغيرة أم كبيرة ؟ قلت مغضباً :

أ كبر ما عندك . ثم انصرف عني وعاد إلى بزجاجته وقدحه . فلما هم أن
ينصرف قلت : فقد أحتاج إلى أخرى ، وما أحب أن أشق عليك حين
يتقدم الليل . قال مبتسماً : إن سيدى لظريف ، ولكن عندى ما يريد سيدى .
ثم مضى وعاد باناء فيه الثلج وفيه زجاجة أخرى من الجعة ، وتمنى لى ليلا
سعيداً ، وأغلق من دونه الباب .

ولعلك تنكر أيها الصديق إقبالى على الشراب ، وعلى الشراب خالياً ، وعلى
الشراب بعد أن كذب الظن وخاب الأمل . ولكن ما رأيك فى أن كذب
الظن وخيبة الأمل ، هما اللذان دفعانى إلى الشراب دفعاً ؛ فقد وجدت
على الحظ وسخطت على الزمان ، وأبيت أن أذعن لمكر الأقدار وغدر الظروف ،
وأقسمت لا أذوق النوم حتى أرى وجه هذه الفتاة المشرق وتغرها المضىء
وأسمع حديثها الخلو وأستمع بروحها الخفيف . وأى شىء أعون لى على
السهر من الشراب والتفكير فيها والكتابة إليك ! لا تغضب ، فما كنت
لأكتب إليك لولا أن أخلف الحظ ظنى وكذب أملى ، واضطرنى إلى أن
أستعين بك على الليل فى مرسيليا ، كما كنت أستعين بك على الليل فى
القاهرة . لا تغضب ، فقد عرفتنى أوثر الصدق على الكذب ، وأكره أن
أغشك أو أخفى عليك ما أجد . ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة
لحظة قصيرة تهدأ لها نفسى الثائرة وتستقر لها خواطرى المضطربة ، ثم آوى
إلى السرير لأنام ، وبين لقائك أو الكتابة إليك ، لما ترددت فى أن أرحب
لقائك والكتابة إليك إلى غد حين يشرق النهار وتملك النفس صوابها كله

وأمنها كله ، ويفكر العقل في غير فتور ولا قلق ولا اضطراب . ما أظن أنك سترضى عن هذا الكتاب؛ فليس فيه شيء يرضيك ، وليس فيه شيء يرضيني . وما كتبت اليك لأرضيك ولا لأرضى نفسي ، وإنما كتبت اليك انتظاراً لمطلع الشمس .

ما أسرع ما تتغير نفس الإنسان ! بل ما أسرع ما تغيرت نفسي ! . فصدقتني أنى أنكرها أشد الإنكار ، ولا أكاد أصدق أن هذه النفس التي كانت هائمةً بمحميدة ، محزونة بل جزعة لفراقها ، نادمة أشنع الندم وأبشعه على ما قدمت إليها من مساءة واقترفت في ذاتها من إثم — لا أكاد أصدق أن هذه النفس التي لم تكن تذوق النوم إلا غراراً « مثل حسو الطير ماء الثماد » كما يقول شاعرك القديم ، قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقها ، ومحيت منها أو كادت تمحي صورة حميدة قائمة في غرفتنا تلك تهلّ دموعها الصامته . لقد كانت هذه الصورة تؤزقني الليل ، وتمغص على النهار ، ويملاً سنوحها لي قلبى فرقا وذعرا . فأنا الآن أنتظرها فلا تسنح لي ، وأدعوها فلا تستجيب لي ، وألح في الدعاء وفي الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجمة ، وكأني أستحضر روحا من أرواح الموتى . وهي لا تثبت بعد أن أجهد نفسي في دعائها واستحضارها ، وإنما تمر بي مرّاً سريعاً كأنها الطيف .

كيف انتقلت من طور إلى طور ! وكيف تغيرت من حال إلى حال !
أكنت خيرّاً فأصبحت شريراً أم كنت شريراً أتكلف الخير ، فلما بلغت هذا البلد القيمت عن نفسي أعباء التكلف وأثقاله وظهرت لنفسي كما

أنا، لامتحفظاً ولا منافعاً؟ أم ماذا؟ إنى لنى حيرة لا أعرف لها حدّاً، ولكنى على ذلك كله راض عن نفسى بعض الرضا، بل كل الرضا. أترى أنى أسأت حين قطعت ما بينى وبين حميدة من الأسباب؟ هبنى لم أفعل، أفكان ما بينى وبين حميدة من الصلة يعصمنى من الشر الذى أنا مدفوع إليه، أم كنت أدفع إلى الشر دفعاً وأقترف الإثم اقترافاً لا أحفل بحميدة ولا بحبها ولا بهذا العهد المؤكد الذى قطعته لها بالوفاء؟. فأنا مدفوع إلى الشر ما فى ذلك شك، وأنا عاجز عن المقاومة، وأنا أسأل نفسى دون أن ألح عليها فى السؤال: أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية ما كرهت قد دفعتنى إلى ما وراء البحر لألقى فى هذه الأرض الغريبة كيداً يدبّر وأمرأ يراد، ولأكون نهباً لشياطين الإثم والغواية والفساد؟ أنا ألقى على نفسى هذا السؤال منذ رأيت هذه الفتاة ففتنت بها، ولكنى أكره أن أطيل التفكير فيه مخافة أن يشوب إلى الرشد وأن أردّ إلى الصواب من أمرى، وأن أتبين ما أنا مقدم عليه. ولست أريد أن أتبين ما أنا مقدم عليه الآن، وإنما أريد أن أتبين الشر إن كان هناك شر بعد أن أتورط فيه. لماذا؟ لست أدرى. ولكنى لست أستطيع أن أقف ولا أن أتأخر، إنما أنا شىء قذفت به قوة عنيفة من قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح لا يستطيع أن يمسك نفسه ولن يستطيع أن يمسك نفسه، حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض السهلة المستوية. أكنت ملجأً فى طلب البعثة رغبة فى العلم الذى كنت أزينه لنفسى أم رغبة فى هذه الأبواب من الفتنة التى لم أكن أستطيع أن أستفتحها فى

مصر ، والتي لست أحتاج أن أستفتحها في فرنسا لأنها تفتح لي وحدها ؟
ماذا أقول أيها الصديق ! أتراني 'جنت أم تراني سكرت ؟ كلا !
لست مجنوناً ولا سكران . وهاتان الزجاجةتان لم أمسهما ، وإني لأتبين كل
ما حولي ، وإني لأعرف أني أكتب إليك ، وإني لأستطيع أن أنبئك
من أمرنا بما لا يحسن المجانين أن ينبئوا به . لست مجنوناً ولا سكران ،
ولكنني عاقل محكم العقل واضح الرأي صافي الذهن . أنظر في المرآة فأرى
نفسى منكورة بشعة ، وأخجل منها حين أنظر إليها أكثر من خجلى منك
حين أكتب اليك . نعم لست مجنوناً ولا سكران ، ولكنني رجل يزدري
نفسه أشد الأزدراء ويمقتها أشبع المقت . وكيف تريدني على ألا أزدري
نفسى وأنا لا أكاد أرى خادماً متبذلة تحمل إلى الطعام وتبسم لي وتتحدث
إلي ، كما تحمل الطعام لعشرات من أمثالي وتبسم لهم وتتحدث اليهم ،
بالصوت نفسه وباللهجة نفسها وبالدهابة نفسها ، لا أكاد أراها مع هذا كله
حتى يحن بها جنونى ويفتن بها قلبى ، وأرجىء من أجلها الرحلة إلى
باريس ، وأقضى من أجلها الليل مسهداً أرقاً ، أستعين على انتظارها
وعلى انتظار الصباح بالكتابة والشراب ! .

لست مجنوناً ولا سكران ، بل لست أدري من أنا ولا ما عسى أن
أكون . لقد زعمت لك منذ حين أنى كنت حماراً قبل أن أعبر البحر
فردتني هذه الفتاة إنساناً . فصدفتني ! إني لأرى نفسى إنساناً ! ولا أعرف
من أى نوع أنا بين الأنواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان .

إلى اللقاء أيها الصديق! لا أحب أن أطيل في هذا الحديث فإني أخشى أن أخرج من طورى، وأن أدفع إلى هذا الجنون الذى أنكره وأبرأ منه . إلى اللقاء! لو أنى عقلت وأحكمت أمرى لانصرفت عنك إلى هذا السرير الذى يدعونى إلى الراحة والنوم . ولكنى أعلم حق العلم أنى لن أستريح ولن أنام، وأنى سأقضى الليل إن أويت إلى فراشى لعبة لصورتين مختلفتين أشد الاختلاف ، إحداهما تخيفنى حتى تبلغ بى أقصى الخوف ، والأخرى تغرينى حتى تنتهى بى إلى غاية الإغراء . إحداهما حميدة البائسة، والأخرى هذه الفتاة الخادم التى لا أعرف من أمرها شيئاً إلا أنها جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح ، تحمل الطعام وتبسم للأضياف . كلا! كلا! إني لا أكذب عليك وأكذب على نفسى . إني لأعرف من أمرها أكثر من هذا قليلاً : إن اسمها « فرنند » .

إلى اللقاء أيها الصديق! لأشغلن نفسى عنك وعن هاتين الصورتين بمصارعة هاتين الزجاجتين ، فإما أن تصرعانى فاستريح حتى توقظنى هذه الفتاة من غد ، وإما أن أصرعهما فليس الجرس ببعيد . وما على إذا أزعجت الخادم وكلفته أن يحمل إلى زجاجة أو زجاجتين ! إلى اللقاء .

أكتوبر فى

ليست الحياة لعباً أيها الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها لعباً . والجنون مباح على أن يكون قليلاً ، فإن طال فمضير صاحبه إلى مستشفى المجانين .

وقد أشفقت أن يطول جنوني، وقد أشفقت أن أدفع إلى هذا المستشفى،
ولكنني أفتت بعد لآئى ورشدتُ بعد غنى، وكان أول ما لقيته في فرنسا
شراً، ولكنني أرجو ألا أستقبل فيها منذ اليوم الا خيراً متصلاً .

أنا أكتب اليك من باريس بعد أن أفتت فيها إقامة المستقر لا إقامة
الزائر الملم . فستبدأ الحياة الجامعية بعد أيام، ولا بد من الانتساب الى الجامعة
والاختلاف الى الدروس، وإلا رددت الى القاهرة أشنع رد. وكيف ألقاك !
وكيف ألقى أصحابنا ! وكيف ألقى أهلى وأصحابهم فى الريف ! وماذا أقول
للناس ! وماذا أقول لصورة حميدة إن عرضت لى فسألتنى ماذا أفدت من
المكث فى باريس أو فى غير باريس من مدن فرنسا ! وماذا أقول لصورة
حميدة إن سألتنى ماذا جنيت من هذا الطلاق الذى أقدمت عليه فى غير
أناة ولا رشد ولا تفكير !

نعم ! لا بد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس وإرضاء
الأساتذة الذين لا أعرفهم، وإرضاء مراقب البعثة الذى أعرفه وأحبه أصدق
الحب وأقواه، وإرضاء نفسى التى لا أدرى أوفى الى إرضائها أم أعجز عنه ؛
فانها بعيدة الطمع شديدة السخط على منذ عبرت البحر .

لا بد من الانتساب الى الجامعة، والاختلاف الى الدروس، وإرضاء مراقب
البعثة لأظفر بثقته واحترامه ؛ فاننا فى حاجة شديدة اليهما ، وأنا لم أظفر
منه الى الآن الا بالعطف والبر والإشفاق بعد السخط الذى ليس فوقة سخط
والغضب الذى لا يشبهه غضب . فقد كلفته من المشقة ما لم يكلفه أحد من

قبلي ، وقد حملته من الجهد ما لم أحمله أحدًا من قبله . فلم تكن هذه الأسابيع التي أنفقتها في فرنسا ناعمة ولا راضية ، ولم يكن يملؤها الهدوء والاطمئنان ، وإنما كانت أسابيع بؤس وجنون وشقاء ومرض أيضاً . واكتمت عليّ ؛ فإن أحدًا من المصريين في باريس لم يعرف مما أصابني شيئًا ، وأنت أول من يعرف قليلا من أمري بعد مراقب البعثة ، هذا الصديق الفرنسي الذي يعرف من أمري كل شيء ، ويكتم من أمري كل شيء ، ويعني بأمرى عناية الأخ المحب الرفيق ، والذي استطاع أن ينقلني من فساد لا حد له إلى صلاح أرجو ألا يكون له حد .

أنا أكتب إليك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة الساكن المستقر لا إقامة الزائر الملم . فقد زرت باريس في الصيف ، ولكنني لم أقم فيها إلا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة وعرفته نفسي ، وقلت له وسمعت منه ، ثم استأذنته في أن أترك باريس حتى ينقضي الصيف . ولم ير بذلك بأسًا ، ولعله رأى فيه خيرًا ؛ فقد كان يحب ألا ألقى المصريين لأول عهدي بفرنسا ليصح تمريني على اللغة ويحسن حديثي إلى أهلها وفهمي عنهم . وقد زعمت له أنني أحب أن أعود إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لأن جوه قريب من جو مصر ، فلم ينكر ذلك ولم ير به بأسًا ، ولكنه نهاني عن مارسيليا وزين لي مدينة قريبة منها على ساحل البحر أيضاً هي مدينة « كان » . فأظهرت الطاعة له والقبول لرأيه . والغريب أنه منحني أجر السفر على حساب الجامعة للذهاب والإياب . وتركته وتركت باريس ؛ ولكنني لم

أذهب إلى « كان » ولم أنزل في الفندق الذى سماه لى من فنادقها إلا بعد أن مررت بمرسيليا .. وأقمت في فندق جنيف أياماً ، واستوثقت من أنى لن أكون وحيداً فى « كان » .

ولم لا ؟ إن لفرنند وإن كانت خادماً الحق فى أن تستريح وتصطاف كما يستريح السادة ويصطافون . وما يمنعها أن تستريح وتصطاف أسبوعين حيث أستريح أنا وأصطاف !! .

وكذلك لم أسافر من مرسيليا إلا بعد أن قدمتها بين يديّ إلى « كان » فى قطار الصباح ، ولحقت بها فى قطار من قطارات المساء . ولا تسلى بعد ذلك عن هذه الأيام الحلوة المرة ، المشرقة المظلمة ، التى قضيتها فى هذه المدينة مع فرنند فى أول الأمر ، ثم وحيداً بعد أن آن لفرنند أن تعود . ولا تسلى عما جنته على هذه الوحدة من السيئات والآثام ؛ فأنت أكرم على وأحب إلى من أن أقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وأنت لا تقرأ كتبى بنفسك ، وإنما يقرؤها عليك غلامك الأسود الصغير . وحسبك أن تعلم أنى رجعت إلى باريس متعباً مكدوداً . أستغفر الله ! بل مريضاً مشرفاً على أعظم الخطر وأشدّه نكراً . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وإن له عندى ليداً ما أعرف أنى أستطيع مكافأتها إلا بالجد الذى يرضيه . ولأبلغن من هذا الجد ما أريد وأكثر مما أريد .

لا تغضب إن انقطعت عنك كتبى ؛ فما أظن أنى سأفرغ للكتابة إليك قبل أن يمضى وقت طويل .

وكان طويلاً حقاً هذا الوقت الذى انقطعت عنى فيه رسائل صاحبي .
وقد كنت أقدر أنه سيمر كنى شهراً أو شهرين . وكنت أظن أنه لن
يستطيع أن يبلغ هذا الأمد دون أن تثور به خواطره هذه الغريبة فترده
إلىّ يلتمس عندى شيئاً من الأمن وراحة النفس واستقرار الضمير .
ولكن الأسابيع مضت فى أثر الأسابيع ، وانقضت الأشهر فى أعقاب
الأشهر ، دون أن أتلقى من صاحبي كتاباً أو شيئاً يشبه الكتاب . والغريب
أنه لم يعرض عن الكتابة إلىّ وحدى ، وإنما انقطعت عن أصحابنا هذه
الجمال القصار التى كان يرسلها إليهم على بطاقات البريد ، وانقطعت أخباره
حتى عن أهله فى الريف . فكثيراً ما كتب إلىّ أبوه الشيخ يسألنى أوصل
إلىّ من أبناء ابنه شيء ، فكنت أرد عليه بأن ابنه فى باريس على خير
حال ، يختلف إلى السربون ، ويرضى أساتذته ، ويرضى مراقب البعثة ، ويرضى
الجامعة المصرية عنه أحسن الرضا . ولم أكن أعلاه بالأمانى ولا أقول له
غير الحق ، وإنما كنت أسأل عن صاحبي فى إدارة الجامعة ، وأعرف منها
أنه ينجح وأنه يجد فى الدرس جدّاً غير مألوف ، ويظهر من التفوق ما لم
يألفه الأساتذة الفرنسيون من الطلاب المصريين . ولم أكن أجد فى هذا غرابة ؛
فقد كنت أعرف من ذكاء صاحبي الشاذ واستعداده النادر ما لم يكن
يعرف غيرى من الذين اتصلوا به وخالطوه . وكانت هذه الأنباء تكفينى

وترضيني ، وتقوم له بالعذر عندى عن انقطاع رسائله عنى ، وتملاً نفسى
حباله و إعجاباً به وشوقاً إليه وحرصاً على أن يتاح لى ما أتيح له من الحظ
فأعبر البحر كما عبره . ولكنى كنت أقسم انن بلغت مرسيليا لأجتنبنّ المقام
فيها إلا ريثما يحملى القطار إلى باريس . وكثيراً ما كنت أسخر من نفسى
حين كان يخطر لى هذا الخاطر . فماذا أخاف من مرسيليا ! وماذا أخاف من
فندق جنيف ! وماذا أخاف من فرند وأمثال فرند ! وما أنا وهذه الفتن
التي لم تصل الأيام بينى وبينها سبباً ، ولم تجعل الأيام لها على نفسى سبيلاً !
وما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً فى الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان
الأزهر الذى أخفقت فيه إخفاقاً بشعاً ، وأتهيأ لامتحان الجامعة الذى
نجحت فيه نجاحاً حسناً ! ثم ما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً فى أدب
أبى العلاء وفلسفته ، متمثلاً لهذه الفلسفة ، متكلفاً لتشاؤم شيخ المعرة ! وكثيراً ما
كنت أخدع نفسى وأغرها ، وأزعم لها انى سأذهب إلى باريس كما ذهب
أبو العلاء إلى بغداد . ومن يدرى ! لعلى أعود من باريس ، كما عاد أبو العلاء
من بغداد ، فألزم قرية من القرى وأقيم فيها لا أريم . ولم أكن فى حاجة
إلى أن أطلب إلى أهل هذه القرية كما طلب أبو العلاء إلى أهل المعرة
الآ يكلفونه أن ينفر معهم من القرية إذا أغار عليها الروم ؛ فلم أكن
أخشى أن يغير الروم على قريتى فى أدنى الصعيد أو أقصاه . وكذلك
كنت مشغولاً بجِدِّ الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التي تعرّض
لها صاحبي ، فأفسدت عليه خلقه ودينه وصحته ، وكادت تنتهى به إلى الموت .

ثم ينقضى العام ويتقدم الصيف ، وإذا الأنباء تأتي من باريس بأن صاحبي قد فعل الأعاجيب ، فأتم في عام واحد ما لا يتمه غيره في أعوام ، وتقدم إلى امتحان ذى بال ففاز فيه وفاز بتهمته الأستاذة أيضاً . وهو مع ذلك لا يكتب إلى ولا يفكر في . وقد كنت أظن أن فوزه في الامتحان وفراره للراحة سيردّانه إلى صديقه لحظات قصاراً أو طوالاً .

ولكن الصيف كله ينقضى وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه بشيء . حتى إذا كان شهر أكتوبر تلقيت منه هذه الأسطر :

أكتوبر في

إنك تنتظر أن أكتب إليك لأصف لك حياتي في باريس . وما كان أحب إليّ أن أفعل ! ولكن حياة باريس لا توصف في الكتب والرسائل ، ولا سبيل لك إلى أن تعرفها معرفة مقارنة إلا إذا حييتها . على أنى أحب أن أصور لك شعوري في باريس تصويراً مقارباً غير دقيق . ولن يكون هذا التصوير بكلام أكتبه إليك ؛ فالكلام كما قلت لا يغني في باريس شيئاً . ولكن اذهب إلى الأهرام ، فما أظن أنك ذهبت إليها قط ، وانفذ إلى أعماق الهرم الكبير ، فستضيق فيه بالحياة وستضيق بك الحياة ، وستحس اختناقاً وستتصبب جسمك كله عرقاً ، وسيخيل إليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم ، وأنه يكاد يهلكك ، ثم اخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف ، واعلم بعد ذلك أن الحياة في مصر هي الحياة في أعماق الهرم ، وأن الحياة في باريس هي الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق .

واجتهد في أن تتم ما بقي لك من درس في القاهرة ، وتؤدي ما بقي لك من امتحان . واجتهد أيضاً في أن تستبقي رضا الذين يحبونك ويشجعونك ويريدون أن تتم درسك في باريس . وأسرع إلى باريس متى استطعت فاني أنتظر ك فيها . وما أكثر ما سيكون بينك وبينى من الأحاديث !

١٦

وتنقضى السنة الدراسية كلها لا يصل إلى فيها من صاحبي كتاب ولا نبأ . وإنما أسأل عنه في الجامعة كما كنت أسأل في العام الماضي ، فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف في العام الماضي أنه مقبل على الدرس في نشاط وتفوق ، وقد أخذ يدرس اللاتينية بمد أن أحسن الفرنسية إحساناً لا بأس به . وأنا أكتب إلى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأحدث بها إلى أصحابنا، حتى أصبح اسمه بيننا رمزاً للجد في العمل وللتوفيق في الحياة . وقد تهيأت لي أسباب الرحلة إلى فرنسا على خير ما كنت أحب . وإني لأستعد للرحيل متنقلاً لذلك بين القاهرة والصعيد ، وإذا الحرب الكبرى تلعن ، وإذا كل شيء يتغير في حياة الأفراد والجماعات ، وإذا رحلتى تؤجل ، وإذا أنا مضطر إلى أن أقيم في القاهرة بأنساً محزوناً سيئ الحظ خائب الأمل . وتأتي الأنباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين ، وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دنت منها جيوش العدو . ولكنني أتلقى من صاحبي هذا الكتاب :

أغسطس في . .

لقد زلزلت الأرض زلزالها ، واضطرب فيها كل شيء وكل إنسان أيها الصديق . وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئاً ، فأنت تقرأ من ذلك في الصحف المصرية والأجنبية ما لا أستطيع أن أبلغه ولا أن أقاربه . وإنما أكتب إليك محزوناً لأن الظروف لم تهين لك الرحلة التي كنت ترجوها وتعقد بها الآمال ، والتي كنت أنا أرجوها وأنتظر منها خيراً كثيراً . فليس لي بين المصريين المقيمين في باريس صديق آنس إليه إن سرتني الحياة ، أو أستعين به إن ساءتني . وإنما نحن قوم متخاذلون متنافسون ، يُبعض بعضنا بعضاً ، ويمكر بعضنا ببعض ، ويكيد بعضنا لبعض في كل شيء ولسبب وغير سبب . قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه ، فجهل كل واحد منا من أمر أصحابه كل شيء إلا هذه الأمور الظاهرة التي ليس إلى جهلها من سبيل . فنحن نعرف من يختلف إلى السوربون في مواظبة ، ومن يزورها لِمأماً ، ومن ينفق يومه في البيت وليله في القهوة . ونحن نعرف من يعبت مع هذه الامة من بنات الغنى ، ومن يدور حول هذه الفتاة من طالبات العلم . ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها ، ونعرف من يلهيه تتبع الطالبات في غير نفع عن الدرس والتحصيل . ونحن نعرف من يكتب إلى أهله بالكاذيب ويخدعهم بالأمانى ، ويستخلص منهم المال بالحق والباطل ، وينفق حياته كلها في اللهو واللعب . ونحن إذا لقي بعضنا بعضاً لم نتحدث إلا في هذا ، ولم نستعن على أنفسنا إلا بهذا . وأظنك تعلم أن ليس لي في

شيء من هذا أرب ولا لذة . فأنا وحيد بين المصريين في باريس وإن لم أكن وحيداً بين الفرنسيين؛ فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ويحبوننى وآمن لهم ويأمنون لى . ولكنى ألاحظ أن لى نفسين : نفساً تأنس إلى الفرنسيين ، وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو ، ونفساً أخرى مشوقة أبداً ، ملتاعة أبداً ، تحب أن تسمع صوتاً مصرياً صادقاً ، وأن تأمن إلى قلب مصرى صادق . على أنى قد حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعاً . فأما أولئك فقد فروا بأنفسهم من الموت الذى يقال إنه قد يغزو باريس . وأما هؤلاء فقد دفعوا بأنفسهم دفعاً إلى لقاء الموت ليردوه عن باريس . وقد أنفت أن أفر مع أولئك ، وضعفت أن أفر مع هؤلاء ، وآثرت موقفاً لا أحمده لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار . وما أرى إلا أنى سأخرج من هذا الموقف كارهاً إن استطاع الموت أن يفتحم ما أعد له الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخالدة ؛ فما أملك حياتى حين يُقدم الموت على باريس . على أنى أجد فى هذه المدينة الخالية التى فر الناس منها ذعراً أو نفر الناس منها خفاظاً ونجدةً ، شيئاً من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وإنما أستطيع أن أقول إنه يملك على نفسى وينعم قلبى إفعاماً ، ويحبب إلىّ هذه الأرض كما لم أحب أرضاً قط .

نعم ! وأجد فى مقامى فى هذه المدينة الخالية لذة لا أدرى كيف أصورها ، وفخراً لا أعرف كيف أصفه . ومع أنى لم أفر مع الناس فقد يتخيل إلىّ أنى

شجاع؛ فليس جباناً ولا ضعيف القلب هذا الذي لم يفر مع من فر ، ولم يعد إلى مصر فيمن عاد من الطلاب ، ولم يغير من أمره شيئاً مع أن كل شيء من حوله قد تغير ، وما زال يتغير ، وإنما ظل في مكانه هادئ النفس مطمئن القلب ينتظر الأحداث والخطوب لاخائفاً ولا وجلاً ولا مذعوراً .

ولقد أخذت على نفسي عهداً ألا أبرح باريس مهما تكن الظروف . وستعلم أنى سأتى بهذا العهد مهما يكافئني ذلك وإن انتهى بي إلى الموت . وأى شيء يكون الموت في سبيل باريس ! لقد أبيت أن أكتب إليك في وصفها وفي وصف الحياة فيها ؛ لأن ذلك لم يكن ميسوراً ، ولأنى كنت أرجو أن تقدم على باريس فأظهرك على ما تستطيع أن تظهر عليه من أمرها . وقد تأخر قدومك ، وكنت أحب أن أعلك بالحديث عن باريس ، ولكنى عاجز حتى عن هذا ، مشغول بالحديث إلى نفسي عن الحديث إليك . فكلم لي من ساعات أخلو فيها إلى نفسي حتى تنقطع الأسباب بيني وبين كل شيء ، وبينى وبين كل إنسان ! والناس مع ذلك حولي يذهبون ويحيثون ويموج بعضهم في بعض . فأنا لا أخلو إلى نفسي هذه الخلوة في بيتي وإنما أخلو إلى نفسي في الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس ويزدحمون . أخلو إلى نفسي أمام تماثيل من هذه التماثيل ، أو عمارة من هذه العمارات ، أو معهد من هذه المعاهد التي يستقر فيها الجدّ خصباً حافلاً بالنتع والأمل ، لا لأهل باريس ، ولا لأهل فرنسا ، بل للناس جميعاً ،

ومنهم هؤلاء العدو الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون أن يصبّوه عليها صبّاً .

نعم ! وأخلو إلى نفسى أمام معهد من معاهد اللهو ، هذه التى تستقر فيها الدعاية فتبعث الفرحة فى القلوب جميعاً ، وتبعث الابتسام على الثغور جميعاً ، وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة الى الذين زهدوا فى الحياة .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء التى أراها كنزاً للإنسانية قد حوت خير ما عند الإنسانية من فن وأدب ، ومن فلسفة وعلم ، ومن عمل وأمل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأفكر فى أن قوماً يزحفون عليها يريدون بها سوء ، ولا يكرهون ، ولعلمهم يحبون أن يمحقوها محققاً ، ويسحقوها سحقاً ، ليغضوا من أمر باريس ، وليغضوا من أمر فرنسا ، دون أن يحفلوا بأنهم إن فعلوا فيغضون من أمر الحضارة كلها ، وسيعلنون فى القرن المئتين العشرين كما أعلن آباؤهم فى أول التاريخ المسيحى أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال ، وأن الإنسانية قد آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف ، وأن تعود إلى هذه الراحة المجدبة التى يملؤها الذل والعقم والهوان .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأراها قائمة باسمه نضرة يملؤها الفخر والتهب ويزدهيها الأمن ، ثم أراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوساً ونضرتها ذبولاً وكبرياؤها ذلاً وخنوعاً ، وإذا

أنا مدفوع اليها متصل بها ؛ فأنا فيها أنعم لأنها ناعمة ، وأبسم لأنها باسمه ،
وأبتئس لأنها مبتئسة ، ويدركني الموت لأنه أدركها .

حرام على فراق باريس حتى أصير إلى مثل ما تصير إليه ، وأخرج معها
من الأهوال بما تخرج به منها . ولنغضب الجامعة إن شاءت أن تغضب ،
ولترض الجامعة إن أحببت أن ترضى ؛ فقد دعت طلابها إلى مصر فعادوا
سراعاً . وأكبر الظن أنها ستردهم إلى فرنسا بعد أن تستقر الأمور شيئاً ،
ولكنها ستحول بينهم وبين باريس لأن باريس قريبة من الخطر معرضة
له دائماً . وسيعود هؤلاء الطلاب وقد تقدم أنت معهم ، وسيتفرقون من
أرض فرنسا في حيث يستقر الأمن والسلام ، وفي حيث لا تصل إليكم يد العدو
ولا تبلغكم قذائفه . أما أنا فقيم هنا لا أريم ، منتظر هنا مع المنتظرين . ومن
يدري ! لعل أخرج من هذا الانتظار إلى العمل . فما ينبغي للرجل الكريم
ذو المروءة أن يعيش مع الناس ضعفاً عليهم مستمتعاً بما يمنحونه من الأمن
آخذاً بأوفر حظه مما يبيحون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى إذا
ألمت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الأحداث ، فر عنهم مسرعاً لا يلوى على
شيء ، أو أقام فيهم جباناً أثراً خانعاً لا يبتغي إلا أن يعيش .

نعم ! ما ينبغي للرجل الكريم ذي المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة .
وما كنت أحب للجامعة أن تلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم إلى
هذه السيرة ، وإنما كنت أحب منها شيئاً آخر . وأنا أعلم أن الجامعة أمينة
على حياة طلابها مسؤولة إلى حد ما أمام أهل هؤلاء الطلاب ، ولكنني أعلم

أيضاً أن الجامعة لا تجبر من الموت ، وأن أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجعوا عليها إن أمت بطالب من طلابها علة مهلكة أو عدت عليه عادية لا مرد لها . وهل الحرب إلا بعض هذه العلل والعوادي ! وماذا تقدم الجامعة إلى الناس حين تقدم إليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر ، وآثروا الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة وعرفان الجميل ، حين كان هذا كله يريد هم على أن يسعوا إلى رد الخطر كما سعى الفرنسيون ، أو يثبتوا لانتظار الخطر كما ثبت أنا ! إنما تقدم إليهم أساتذة قد فروا من الخير إلى الشر ، ومن الإيثار إلى الأثرة ومن الكرم والتبذل إلى الذلة والموان .

وأنا أعلم أنك أيها الصديق تنكر هذا مني ، وتراه جنوناً أو تراه إسرافاً . ولكن ما رأيك في أنني أرى هذا طبيعياً ، وأصدر عنه حين أفكر وحين أعمل ، وفي أنني قد رفضت العودة حين عاد الطلاب الجامعيون ، ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين إلى الأقاليم النائية ، وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له جهداً . وسينقطع عني من غير شك راتب الجامعة ، ولن أطلب العون من أهلي ، وما أحب أن تنبئهم من ذلك بشيء . وقد أتعرض للضر ، وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأساً ؛ فإن معي ملايين سيتعرضون لهذا الضر ، وسيذوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على أنني لا أريد أن أغلو ولا أصور لك نفسى في صورة البطل . فلئن نجت باريس من هذا الشر المحقق ، لأعودن إلى ما أنا فيه من حياة هادئة وادعة . ولئن أمت بها الكارثة

لأن كون واحدًا من هذه الملايين التي تشقى ، ولكنها لا تصور شقاءها في الكتب ولا تتحدث به إلى الأصدقاء من وراء البحر ، وإنما تلقاه ثابتة له مطمئنة إليه ، حتى تنفرج عنها الكربة ، وتزول عنها الغمة ، وتنجاب عنها ظلمة الليل . ولعل أظهر ما تترك الحرب في نفوسنا من الآثار أنها تهوّن عليها الحياة ، وتزيل عنها هذه الأغشية التي نسجتها الحضارة لها نسجاً من الأثرة وحب اللذة والتهالك عليها ، والطموح إلى الترف ، والحرص على الأمن والاستمتاع بما يبيح من نعيم ، فكل هذا شيء مصنوع متكلف أنتجته الحضارة إنتاجاً . وليس هو في طبيعة الحياة ، وإنما طبيعة الحياة أيسر من هذا وأدنى إلى السذاجة . إنما هي حركة ونشاط يعقهما سكون وخمود . إنما هي هذا الذي نراه في غيرنا من الحيوان الذي يتبع غرائزه آخذاً من نشاطه بأعظم حظ يستطيعه ، حتى إذا ألمت به الكارثة أو تلقاه الموت لم ينظم شعراً ولم يكتب نثراً ، وإنما انتظر الموت مدعنا له ، ودخل في الفناء كما خرج منه ، لم يرد الدخول فيه كما لم يرد الخروج منه .

نعم ! هذا أظهر ما تترك الحرب في نفوسنا من الآثار . فنحن نتبع غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا . نحن شجعان دون أن يكون لنا فضل في الشجاعة . ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل في الإيثار . ونحن جبناء وأثرون أيضاً دون أن يكون علينا في الجبن والأثرة لوم . إنما نقدم أو نُحجم لأننا ندفع إلى الإقدام أو نرد إلى الإحجام ، لا نرى من هذا ولا ذاك بدءاً . ذهبت بالقياس إلينا كل فلسفة ، وانحلت بالقياس إلينا كل قاعدة ، وأرسلت

نفوسنا على سبجيتها إرسالا . فنحن ننتهز الفرصة حين نظفر بها ، ونستمتع باللذة إلى أبعد غاية الاستمتاع حين تتاح لنا ، لا نحاسب أنفسنا ولا نساءها . وفيم الحساب والسؤال ونحن لا نفكر في العاقبة لأن فكرة العاقبة قد محيت من نفوسنا محواً ! وما التفكير في العاقبة وما السؤال عنها ، ونحن نراها ساعية إلينا مشرفة علينا ، قد زلزلت الأرض من حولنا زلزالا ! أليست هي في هذا الموت الذي يسعى إلى باريس ويوشك أن يبلغها غداً أو بعد غد !

لست أدري إلى أي عاقبة تنتهي هذه الحرب . ولست أدري لمن سيتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة . ولكن الذي لا أشك فيه هو أن الناس سيقضون أيام الحرب والأعوام التي تليها متأثرين بالغرازا أكثر مما يتأثرون بأى شيء آخر ، مهدين لما عرفوا من قيم الأشياء إهداراً ، مزدريين لما ألفوا من المثل العليا . وما أرى إلا أنهم سينفقون دهرآ متمردين على العقل والخلق ، واجدين في هذا التمرد أقصى اللذة وأقصى الألم .

لست أدري أتفهم عني ؛ فقد أقت الظروف بينك وبينى حُجبا كثافا صفاقا ، لعل الكلام لا ينفذ منها ، ولعل العقول لا تتصل من دونها . أنت آمن وأنا خائف . أنت هادئ وأنا مضطرب . أنت لا تخشى الموت وأنا أراه يسرع إلى وإلى ما حولي ومن حولي في غير ريث ولا أناة . كم أحب لك أن تعبر البحر لتتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا الميدان ، أو ألموا به ثم ردوا عنه . فهما تكن المدينة التي سترسل

اليها بعد أشهر فستكون فيها قريباً من المئات والآلاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزعون توزيعاً على ما أقيم في فرنسا من المستشفيات ، وستسمع من هؤلاء أو من الذين يتصلون بهؤلاء أبناء الموت وأحاديث الحرب ، وستفهم أنها خليقة أن تغير في الحياة رأى الأحياء . أين أنا ؟ وماذا كنت أريد أن أقول لك حين بدأت هذا الكتاب ؟ . لقد أنسيت مكاني وأنسيت بدء الحديث . وما أنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذي أنا فيه والذي أكتب إليك منه . إنها هذه القهوة التي يألفها الأدياء في حي مونبرناس ، والتي تعودت أن أختلف إليها ، وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم ، لأراهم حين يُقبلون وحين ينصرفون ، ولأسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة الحلوة ، وهذه الفكاهة ذات الأجنحة ، وحين يتناشدون الشعر ، ويتبادلون الرأي فيه حول أقذاح الابسنت إذا دنا الظهر أو أقبل الليل ، وحول كوؤوس الكونياك وأقذاح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء . إنني لأعرف نفسى في هذه القهوة التي كانت وفقاً أو كالوقوف على أدياء الحي اللاتيني . ولكنى أختلف اليها منذ أيام فلا أرى فيها خلق الأدياء، ولا أنديتهم، وإنما هي مزدهمة دائماً تكتظ بالمقبلين عليها من كل صوب ، قد اختلطوا أشد الاختلاط، وتباينت طبقاتهم أشد التباين . وهم يلمون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام ، إنما يلتقون ويفترقون ، ويصيبون بعض ما يحتاجون اليه من شراب بارد أو حار ، ثم يمضى كل منهم لوجهه . ومن يدرى ! لعلمهم لا يعودون الى هذه القهوة أبداً . ومن يدرى ! لعل الذين يلتقون فيها لا يلتقون

بعد هذا اليوم أبداً . وباريس كلها في هذه الأيام تشبه هذه القهوة ، يلتقي فيها الناس سراعاً ويفترقون سراعاً . كلهم معجل ، وكلهم قلق ، وكلهم يستقبل الساعة التي هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التي تليها حساباً ؛ لأن حساب الساعات لم يبق في أيدي الناس وإنما صار إلى يد « أم قشعم » . ألسم تزعمون أن أم قشعم هي الحرب ! تعال أيها الصديق فانظر إليها وابل سلطانها على النفوس ، فسترى وستسمع وستحس أشياء لاصلة بينها وبين ما تقرأ في شعر زهير .

وداعاً أيها الصديق . لقد ذكرت الآن فيم أقبلت إلى هذه القهوة . فهذه « إين » تقبل على مبتسمة في هذه الأيام التي لا يفهم فيها معنى الابتسام ، وأنا أوسم لها . ولا تسألني عن إين ؛ فالله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء إن تبد لكم سوءكم . وما أحب أن أسوءك بحديث إين ، فيكفي أن تعلم أن صديقك الذي كان جاداً كل الجد ، منصرفاً إلى الدرس كل الانصراف ، قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الأسباب كلها بينه وبين حميدة وفرند . يكفي أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجد وقطع الأسباب بينه وبين الدرس ، ووصل الأسباب بينه وبين إين . ولن أحدثك عنها مادامت هذه الأسباب موصولة ، فإذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فأنت تعلم أنني لا أحدثك عن رضاي حين أرضى ، وإنما أحدثك عن شقائي حين أشقى ، فتمن لي الشقاء إن حرصت على أن أحدث إليك .

وداعاً أيها الصديق ! إن إين تضيق بانصرافي عنها إليك . ولئن مضيت

في هذا الحديث لتمزقن كتابي إليك تمزيقاً. فلا تصرف عنك إليها، ولأستقبل معها حياة المساء في باريس المضطربة. فمن يدري عمَّ يسفر لنا الصباح .

١٧

ديسمبر في

وكذلك عبرت البحر في أيام الحرب وفي فصل الشتاء ، ولقيت من عبوره هذا الشر العنيف الذي خلقته لنفسك خلقاً ، وخيلته إليها تخيلاً أيها الصديق . فما كانت سفينتك معرضة لخطر العواصم . ولو عرفت الجامعة أنكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم إلى فرنسا ؛ فهي حريصة على حياتكم حرصاً شديداً . وما كانت سفينتك على صغرها وطول العهد عليها معرضة للغرق ولا لأن تحطمها الأمواج . فلو كانت تعرض لشيء من ذلك لما أُذِن لها بالعمل في البحر . وإنما أنت رجل من أبناء الريف لا تعرف المخاطرة ولا المغامرة ؛ فكل جديد عندك خطير ، وكل مشقة عندك مشرفة بك على التهلكة . وها أنت ذا قد نجوت من الغرق ، فلم تنسفك غواصة ولم يطغ الموج على سفينتك . فأنتم بهذه النجاة ، وانعم بالوصول إلى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف إلى جامعة مونبلييه ، وانعم بما قدر لك من أمن وهدوء ؛ فلن يبلغ الألمان مونبلييه . وأنتي لهم أن يبلغوها وهم قد رُدُّوا عن باريس كما علمت رداً عنيفاً ، وهم قد اضطروا إلى هذه الحياة التي يحيمونها في الخنادق ينتظرون أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الهجوم ، و ينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحسر

الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف وليخرجوهم من أرض الوطن إخراجاً !
اهناً بهذا الأمن في مونبلييه وإن كنت لا أفهم لم وجهتكم الجامعة
إليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمناً من مونبلييه بعد أن
رُدَّ الألمانيون عنها رداً وقد كُسرَت حدّتهم وُقِلت عزائمهم ، فلن يبلغوها
بعد اليوم مهما تتح لهم القوة ومهما يواتهم الحظ . ولكنكم قوم تحسنون
الاحتياط وتغلون فيه وتتجنبون حتى مظنة الخطر . فلتنعموا بما أُتيح لكم
من هذا الحذر الذي لن يغني عنكم من الله شيئاً . ولكني أحب لك ألا تتخذ
نفسك بالأمانى ولا ترسلها مع الفرور، ولا تخيل إليها أنك تعيش في فرنسا
تلك التي عرفناها قبل الحرب ؛ فإن فرنسا تلك ليست في المدن ولا في
الأقاليم ولا في باريس ، وإنما هي في ميدان القتال، تواجه الموت وتبسم له بعد
أن كانت من قبل تواجه الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة
شيوخ عجوزا عن حمل السلاح إلى الحرب فأقاموا في الجامعة يعلمون .
وستختلف إلى الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لاحظت لهم مما كان
يملاً نفوس الفرنسيين من فرح ومرح ونشاط . ستعيش في بيئة مظلمة
مكفهره، فيها أمل ولكنه بعيد، وفيها خوف ولكنه قريب . فيها أمل في فوز
فرنسا ، وفيها خوف على أبناء فرنسا . وفيها يأس لاذع يتردد بين ذلك الأمل
وهذا الخوف . والحياة في هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع ، ولكنك
لا تستطيع أن تبلوها كما ينبغي ؛ لأنك لم تر فرنسا الفرحة المبهجة الآمنة
لتقيس إليها فرنسا الحزونة المكتئبة الخائفة . افرغ إذا لعلمك ودرسك ،

وامنح أكثر وقتك للكتب ، وأجل معرفة فرنسا إلى حين ؛ فإنك لن تعرفها حق المعرفة إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومتى تضع الحرب أوزارها ؟ . .

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك إلى هذا الحد ؛ فقد ذهبت فيما زعمت لي إلى فندق جنيف حين انتهيت إلى مرسيليا ، وكنت تظن أنك ستلقى فيه فرند . ويحك ! وهل تبقى فرند في فندق واحد كل هذا الأمد البعيد ! من يدري أين فرند بعد ما مضى من الزمن ، وبعد ما اضطرت شؤون فرنسا وشؤون الأرض كلها هذا الاضطراب ! وماذا كنت تريد إلى فرند ؟ وعمم كنت تريد أن تسألها ؟ لقد أنبأتك بما وسعني أن أنبئك به من أنبأها ، فهل كنت تريد أن تمتحن ذوق ؟ أم هل كنت تريد أن تعرض نفسك لمثل ما عرضت نفسك له من الحنة ؟ إنك لست في حاجة إلى فرند إن كنت تريد أن تبلو مثل ما بلوت ؛ فأمثال فرند كثيرات في كل فندق وفي كل مدينة وفي كل بيئة . فاحذر أن تتعرض لمكرهن ، وارفع نفسك عن هذا الشر الذي غمست نفسك فيه ، والذي لا أستطيع أن أخلص منه مهما أبذل من جهد وأتكلف من عناء . لقد صدق «موسيه» حين شبه قلب الرجل النقي بالإنباء العميق ، إذا استقر الدنس في قاعه فليس إلى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . إن قلبي هو هذا الإناء ، وقد استقر في قاعه هذا الدنس . ولقد حاولت تطهيره ما استطعت إلى ذلك سبيلا : بالتفكير والتدبر ، بالقراءة والدرس ،

بالجد والنشاط، بهذه المثل العليا التي كنت اتخذتها وأجد في السعي إليها، وأوفق أحياناً في هذا السعي بما حاولت من إرضاء الأساتذة ، وبما حاولت من إرضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من إرضاء الجامعة ، وبما بلغت من هذا كله، ولكنني مع ذلك لم أستطع أن أحمو من قرارة نفسى هذا الدنس الذى استقر فيها فلزمتها لزوماً ، واتصل بها اتصالاً لا انقطاع له .

لقد خيّل إليّ في بعض الأوقات أنى قد خلصت من الشر و برئت من الإثم ، وارتفعت عن النقيصة ، وأنى قد كثرت بالمرض الطويل الثقيل للمهلك عما افترفت من السيئات ، وأنى قد طهرت نفسى بالعلم تطهيراً ، وكرّمتها بالدرس عن كل ما يفسدها ويشينها ، وأخذت أكبر نفسى وأغالى بها ، ولكنني تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها ، وأن القضاء نافذ بالغ أجله مهما تفعل ومهما نحاول . وقد عرفت قضاء الله فى أمرى . فأنا رجل موكل بالجد واللهمو معاً ، أبلو اللذة حتى أصل إلى أقصاها ، وأبلو الألم حتى أنتهى إلى غايته ، أقبل على العلم حتى كأنى لم أخلق إلا للعلم ، ثم أقبل على اللهو حتى كأنى لم أخلق إلا للهو . أقبل على العلم فلا يصرفنى عنه صارف مهما يكن ، وأقبل على اللهو فلا يشغلنى عنه شاغل مهما يكن . يتاح لى الغنى ويلم بى الفقر ، فلا يمتنعى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم إن كنت مقبلاً عليه ، ولا من المضى فى اللهو إن كنت منصرفاً إليه . وقد عرفت إالين — إن كنت تذكر إالين — من أمرى هذا كله ، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت إن رأتنى مقبلاً على العلم تهملنى حتى كأنها

لم تعرفنى قط ، وإن رأيتى مقبلاً على اللهو تُعنى بى حتى كأنها لم تعرف
غيرى قط . وأنا يا سيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو .
وقد بقى لى شيء من إرادة ، فأنا أنفقه فى تنظيم أمرى على وجه ما ، وأود
لو استطعت أن الأثم بين هذين العدوين اللذين يختصمان فى اختصاصا ،
وأود لو استطعت أن أقسم وقتى وجهدى بينهما قسمة عادلة ، فللعلم شطرنهما
وللهو شطر آخر . فمن يدرى ! لعلى إن وقتت لهذه القسمة أن أصلح
مزاجى بعض الإصلاح ، وأن أنظم أمرى بعض التنظيم ، وأن أنتهى إلى
نتيجة أرضاها وأرضى بها من لا بد أن أرضيهم من الناس . وقد أخذت
فى هذه التجربة منذ أسابيع ، وأنا أبذل فيها جهداً عنيفاً وألقى فيها شطراً
شديداً ، وأخشى كل الخشية ألا أوفق لشيء . لقد أخذت أدرس اللاتينية ،
ورببت نظام الدرس مع الأستاذ ترتيباً رضىه وأقره ، فلما أخذنا فى تنفيذ
ما اتفقنا عليه لم نجد الى ذلك سبيلاً . ولو أنك سألته عنى لأنبأك فى بأس
وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس ، وبأنى أقدر الناس على العمل
وأعظمهم حظاً من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجِدِّ وأعظمهم نصيباً
من الخيبة . أما فى أول أمرنا فقد كان لا يزورنى إلا وجدنى مستعداً
لللقاءه متهيئاً لدرسه ، وكان يزعم لى أنى سأقدم للامتحان فى وقت قريب
وسأفوز فيه فوزاً مبيناً . ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صُرِفَت عن العلم
ودُفِعَت إلى اللذة ، وأفلت من السوربون ولزمت ذراعى إلين . ويزورنى
الأستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مغرقاً فى النوم لأنى أفنيت الليل ووجه

النهار في اللهو والعبث والمجون ، فيستبيثس اذا تكررت زيارته في غير جدوى .

ولكني أفرغ له بعد حين ، فأسعى إليه وألح عليه ، وأعرض ما فات وأصلح ما فسد ، وأرضيه بعد سخط . وعلى هذا النحو تمضى حياتي منذ حين ، ولم يزد لها شوب الحرب إلا مضيئاً في هذا النحو من الفساد والاضطراب . فقد محت الحرب من نفسي كل ثقة ، وزادت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة . فأنا أحميا لغير شيء ، أو قل إنى لا أحميا ، وإنما أنتظر شيئاً مجهولاً لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه ، ولو قد أردت لما استطعت . وأنا أنتظر هذا الشيء المجهول كما أستطيع أن أنتظره ، مستعيناً عليه بالعلم والجد حين أفرغ للعلم والجد ، وباللهو والعبث حين أنقطع للهو والعبث . وقد يتاح لى أن أفكر في ذلك ، وأن أمتحنه وأحاول أن أتعرف أسبابه ، فأشعر بأن نشأتى في مصر هى التى دفعتنى إلى هذا كله دفعاً وفرضت هذا كله على فرضاً ؛ لأنى لم أنشأ نشأة منظمة ، ولم تسيطر على تربيتى وتعليمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب ، تدفعنى الى يمين وتدفعنى الى شمال ، وتقف بين أحياناً بين ذلك . ولو أنى بقيت في مصر لأنفقت حياتى كما بدأتها في هذا الاضطراب المتصل في غير نظام وإلى غير غاية . ولكنى عبرت البحر إلى بيئته لا يصلح فيها الاضطراب ، ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة ، فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الأثقال فيها ، ولم أحسن الخضوع لما تفرضه

من نظام واطراد . ثم كانت الحرب واضطربت الدنيا ، وأُضيفَ في نفسى
فساد إلى فساد واضطراب الى اضطراب ، ففقدت نفسى محورها — ان
صح هذا التعبير — وأصبحت لعبة تتقاذفها الأهواء .

ما أشد حاجتى إلى قربك أيها الصديق ! فقد تقدر على أن تنفعنى ،
ولكنى لا أستطيع أن أفرّ اليك من باريس ، فالموت أهون علىّ من ترك
باريس ، ولا أستطيع أن أنقلك الى حيث أنا ، فالجامعة تحول بينك وبين
هذا الانتقال . وإنى مع ذلك لأخشى على نفسى كل شىء ، وإنى مع ذلك
لأظن أنى لن أعود الى مصر — إن عدت إليها — سالماً موفور العقل
مستقيم الملكات قادراً على النفع والإنتاج .

فلينفذ القضاء إذاً ، ولتتم كلمته . فإئن ذهبت في غير نفع فما أكثر الشبان
الذين يذهبون في غير نفع هذه الأيام !

١٨

يناير فى

إن ظننت أيها الصديق أن فى بقية من عقل أو فضلا من إرادة، فانف
عن نفسك هذا الظن نفيًا . فالبرهان يقوم لى كل يوم على أنى أسعى الى
الجنون فى سرعة تزداد بين حين وحين ، كما تزداد سرعة السقوط بالجسم
الذى يهوى إلى الأرض بين ثمانية وثمانية . فان كنت فى شك من ذلك
فاعلم أنى أنفتت فى القراءة وفى القراءة وحدها إجازة عيد الميلاد ورأس

السنة على حين كان الناس ينصرفون إلى ما ينصرفون إليه في هذه الأيام التي هي أيام بهجة وعيد عادةً ، والتي يشوبها الحزن والألم . هذه المرة كنت أنا عاكفاً على «سيسرون» و «تاسيت» قراءة وفهماً وترجمة . وكنت أجد لذة في هذه الليالي التي أنفقها من وراء الباب مع الكتاب القدماء والشعراء القدماء ، على حين يحيا الناس حياتهم ويجدون فيها ما يجدون من اللذات والآلام . وقد أنسيت كل شيء وأنسيت كل إنسان . ولولا أن الخادم كانت تحمل إلى الطعام أو تدعوني إليه لأنسيته أيضاً . وقد انقطعت الصلة بيني وبين إلين في هذه الأيام التي كان يجب أن تقوى فيها الصلة وتكون بئامن من الضعف والفتور .

ثم انقضت الإجازة، وجعلت أختلف إلى السربون ، فسمعت درس اللاتينية وظفرت ببناء الأستاذ ، وخرجت . ولكنني لم أذهب إلى بيتي ، وإنما ذهبت إلى حيث ألقى إيلين . وقد لقيتها ، وأنفقت معها اليوم بعيداً عن باريس في غابة من هذه الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفترق إلا لنتلقى بعد قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لأكتب إليك ، ولأظهرك من أمرى على أطوار هذا المرض الذي يسعني إلى ، أو يسعني في سعيًا حثيثًا . وثق بأن السربون لن تراني غداً ولا بعد غد ، بل ثق بأني لا أعلم متى تراني السربون وداعاً ياسيدي . إني لأرى شبح الجنون بفيضاً مزعجاً ، ولكنني مع ذلك لا أهابه ولا أتأخر عنه ، وإنما أقدم عليه إقدام الحب الجريء . وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة إيلين !

يوليو في . . .

لم يكن الامتحان عسيراً، ومع ذلك فقد أخفقت فيه أجمل إخفاق وأروعها، هذا الاخفاق الذي لا يظفر الطالب فيه بدرجة أو بعض درجة، وإنما يظفر فيه بالصفير المريح . ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئاً؛ فقد تقدمت اليه سرّاً ، فلن أودى لها حساباً عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به علماً . لم أكن أشك في الفوز؛ فقد وعدني به أستاذي الخاص الذي أتعلم عليه اللاتينية ، ووعدت نفسي به وتهيات له كأحسن ما يتهيأ طالب للامتحان . ولكن أدركتني نوبة المرض أو نوبة اللهو — ان أردت الدقة في التعبير — قبل موعد الامتحان بأسبوعين ، فقضيت هذين الأسبوعين مع إين ، نهم في الغابات إذا كان النهار ، ونطوف على الحانات إذا كان الليل ، ولا نلم بالبيت إلا مطلع الفجر .

كانت إين تذكّرني بموعد الامتحان ، وتحذّرني عاقبة هذا الجنون ، وتصور لي جمال الفوز، وتمنّيني تلك الأيام الجميلة التي سننفقها بعيداً عن باريس إذا كان الصيف . ولكنني كنت أعرض عنها أشد الإعراض ، وأزجرها أشد الزجر . فقد كان شيطان اللهو قد ملأ قلبي ونفسي وركب كتفي .

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد في الذهاب إلى السوربون ولا في دخول حجرة الامتحان ، وأخذ النص اللاتيني فأقرؤه وأقرؤه ، ثم أقرؤه وأقرؤه ،

فلا أفهم شيئاً ولا أصنع شيئاً . وأنا أبذل جهداً عقلياً عنيماً على أوفق لفهم جملة أو بعض جملة ، فإذا لم أظفر بشيء رددت النص كما أخذته ، وانصرفت إلى بيتي راضياً محزوناً معاً . ثم لا أكاد أخلو إلى هذا النص بعد ذلك بساعة أو ساعتين حتى أفهمه في غير مشتة وأترجمه في غير جهد ، وأستوثق من أنى كنت خليقاً أن أفوز ، وإذا قلبي يمتلئ سروراً وبهجة ، وإذا أنا أسرع إلى الإبن فأبنيها بأنى جمعت بين الفوز والإخفاق معاً .

وداعاً يا سيدى ! سأنجح في نوفمبر إذا لم يدركنى الشيطان . فأما الآن فإلى اللهو ، إلى اللهو المجنون الذى لا يعرف رفقاً ولا مهلاً ولا تفكيراً . إلى اللهو حتى يضعف العقل والجسم معاً ، وحتى أضطر إلى الراحة ثم إلى الجهد اضطراراً .

٢٠

سبتمبر فى . . .

وإذا فقد زرت فرنسا وأقت فيها ، وستعود إلى مصر ولم يكن بينك وبينى هذا اللقاء الذى كنا نرجوه . ولست أدرى أيسوءك هذا أم لا يسوءك ، ولكنى أعلم أنه يسوءنى حقاً؛ فقد كنت حريصاً على لقائك لأراك بعد أن طال افتراقنا ، وقد كنت حريصاً على لقائك لأستعين بك على نفسى وعلى ما يدهمهما من الأحداث والخطوب . ولكن الجامعة أبت أن نلتقى ، وأبت الظروف أن تطول إقامتك فى هذا البلد حتى تتاح لنا فرصة اللقاء . وإنى لأرجو أن تتاح لك عودة قريبة ، فما أرى أنك قد زرت فرنسا ولا انتفعت بزيارتها ،

وما أظن إلا أنك ستعود وفي نفسك حسرات لا تنقضى . فليس من الهين أن تدنو من الغاية ثم تردّ عنها ردًّا ، ولا أن تشارف الأمل ثم تقطع بينك وبينه الأسباب . ولست في حاجة الى أن أنبئك بأني قد رفضت الإذعان لأمر الجامعة ، وأبيت أن أعود في هذه المرة كما أبيت ذلك في العام الماضي . وكيف تريدني على أن أعود وقد أنفقت أعواماً في فرنسا ، ثم لم أصنع شيئاً تحسن العودة به والاطمئنان اليه ، وإنما كان حظي من الفساد والشر أكثر من حظي من الصلاح والخير ! وماذا تريد أن أقول حين أعود إلى مصر فأسأل عما صنعت ؟ أحدثت الناس عن فرندو وإلين وما لقيت عندهما مما أحب وما لا أحب ؟ أم أحدثت الناس بذلك المرض الذي ألح على جسمي حتى أشرف بي على الموت ؟ أم أحدثهم بهذا المرض الذي ألح على عقلي حتى أشرف بي على الجنون ؟

لا يا سيدي ! إن العودة إلى مصر شيء لم يقدر لي بعد . ولو أنني بلغت من مقامي في فرنسا كل ما أريد لما رضيت هذه العودة ولا أجبث إليها . فأنت تعلم أنني قد نذرت ألا أترك باريس حتى أصير إلى ما تصير إليه ، وحتى أرى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما أبعد الأمد بيننا وبين آخر الحرب كما ترى ! فالأسباب مقطوعة بيني وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شيء يجري كما أحب ، فكيف أعود إلى مصر دون أن أصطحب إليّ وإلين وليس لي إلى الحياة سبيل إذا لم أكن قريباً من إيلين ، أراها متى شئت وتراني متى أحببت ، وأفرغ إليّها حين

أضيق بحياة العمل والجد . وإلين فرنسية لا تريد أن تهجر وطنها ، ولأن تفارق باريس وإن أعطيت ملء الأرض ذهباً . فإقامتي في فرنسا قضاء محتوم لامندوحة لى عنه . وشهد الله ما أجد لذلك أمماً ، وإنما أجد فيه اللذة كل اللذة . فاقراً تحيتي على مصر إن شئت ، ولا تحدث أصحابنا بشيء من أمرى . وإن سألك أهلى عن بعض أمرى فقل لهم ما يخطر لك ، ولكن احذر أن تنبئهم من حقيقة أمرى بشيء ؛ فما ينبغي أن نشق على هذين الشيخين ، وما ينبغي أن نشمت بنا الشامتين .

وبعد فإن أمور مصر محزنة حقاً . أليس مما يسوء ويحزن أن يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استبقاء بعوثها في أوربا حتى تتم ما أرسلت من أجله ؟ أو ليس مما يحزن ويسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشاقة التى تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أثقالها ونفقاتها ، وتضحى فيها بما تضحى به من الأنفس والأموال ، وأن نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر؟ ولكن ماذا ينفع الحزن والأسى ، وماذا يجدى اللوم والتقريع؟ لا بد مما ليس منه بد . عد إلى مصر فأنت مضطر إلى أن تعود . ولأبق أنا في فرنسا ، فأنا مكره على أن أبقى . وسنرى أيتاح لنا أن نلتقى ، وأين يتاح لنا أن نلتقى .

وداعاً أيها الصديق وإن لم يكن بيننا لقاء .

وأعود إلى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها في القاهرة فأرى صاحبي .
ولكنني لا أكاد أعرفه لولا صوته الذي لم يتغير ولولا ضحكاته العراض التي
لم تهذبها الإقامة في باريس؛ فأما غير ذلك من أطوار نفسه فقد تغير حتى
أنكرته أشد الإنكار . فصاحبي محزون مغرق في الحزن، حتى ليفسد عليك
رأيتك في الحياة إن لقيته في هذا الطور . وصاحبي مسرور مغرق في السرور،
حتى ليثير في نفسك الإشفاق عليه من هذا الإغراق في السرور إن لقيته
في هذا الطور أيضاً . وصاحبي ينتقل من الحزن إلى السرور ومن السرور
إلى الحزن فجأة في غير تهَيُّؤ ولا تدرج ولا انتظار لهذا الانتقال . وإنما أنت
مع رجل بأس يأس ، سيء الرأي في الحياة والأحياء ، قد أظلم كل شيء
في وجهه وفي نفسه ، فلست تسمع منه إلا شراً ونكراً . وإذا أنت ترى
هذا الرجل وقد وثب فجأة من نقيض إلى نقيض وأصبح فرحاً مرحاً ،
منطلق اللسان بالثناء على كل أحد وعلى كل شيء ، ممتلىء الفم بهذا
الضحك المزعج العريض ، لا يتكلم هادئاً ولا يتحرك هادئاً ، وإنما هو
عنيف في لفظه، عنيف في حركته، عنيف في كل شيء، حتى إنه ليلفت إليه
وإليك الناس ، وحتى إنه ليخيفك من أن ينكر الناس مكانكما ويدعوكما
إلى الصمت وإلى إثارة الهدوء .

وصاحبي إن حزن لا يعدل بالكتاب شيئاً ، وصاحبي إن سرَّ لا يعدل

بالشراب شيئاً . وهو مسرف في صحبة الكتاب يأخذ المجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده ازدراداً . وصاحبي مسرف في الشراب إذا أقبل الليل عليه لم تكفه الزجاجاة ولا الزجاجتان من معتق النبيذ ، وإنما يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو لا يعجز عن الشرب إلا حين تعجز يده عن تناول الزجاجاة وصب شيء من روحها في القدح . وإذا انتهى العجز بصاحبي إلى هذا الحد لبث مكانه لا يريم ، نائماً كالمستيقظ ، ومستيقظاً كالنائم حتى تنجلي عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبي يختلف إلى السوربون قليلاً ولا يكاد يختلف إلى القهوة ، ولكنه يلزم بيته في أكثر الوقت . وقد يستخفي اليوم أو الأيام لا نعلم أين هو ، ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع إين . ولم يتح لأحد من أصحابه ولم يتح لي بالطبع أن نرى إين هذه أو نسمع منها أو نتحدث إليها ، حتى لقد كان يخيل إلينا أنها شخص من أشخاص الأساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقاً في وقت من أوقات سكره ولطوه . ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث ، وكانت أحاديثه لا تصور شخصاً مخترعاً ، وإنما تصور شخصاً حياً يذهب ويجيء ، ويعبث ويلهو ويعين على العبث واللغو ، ويدفع إليهما أحياناً . وكثيراً ما ألحنا على صاحبنا في أن يعرفنا إلى إين أو يعرفها إلينا ، فلم تكن تلقى منه إلا إباء وإعراضاً . وكان يقول : إن حب الاستطلاع إثم ، فما تريدون إلى إين ؟ إني أحدثكم من أمرها بما يعنيكم وما لا يعنيكم ، وإين صاحبتى أنا لا صاحبتكم أنتم ، ولن يكون لكم منها إلا هذا الذي تسمعون عنها ، وإنه

لكثير أكثر مما ينبغي . وكثيراً ما جد بعض أصحابنا في تتبعه والبحث عن إين فلم يظفر بطائل . ولولا أني رأيت إين بعد ذلك لما شككت في أنها كانت شخصاً من أشخاص الخيال .

وقد أنفقنا عاماً دراسياً كاملاً على هذا النحو ، أتي صاحبي بين حين وحين فأنكر من أمره أكثر مما أعرف ، ولا تتصل بينه وبينى تلك الأحاديث التي كانت تتصل بيننا في القاهرة والتي كانت لاتنقضي ، وإنما تلتوى وتعوج ، وتخرج بنا من موضوع إلى موضوع ومن رأى إلى رأى ، حتى أضرع اليه في أن يقفها لأنه أعياني وأجهدني حقاً .

لم تكن تتصل بيننا هذه الأحاديث في باريس ، إنما كان يلم بحديث عن السوربون قليلاً ويطيل الحديث عن إين ، مثنياً عليها حيناً ، شاكياً منها حيناً آخر ، واصفاً محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائماً .

ثم يفرق الصيف بيننا ، فأذهب أنا إلى الجبل ، ويقم هو في باريس لا يكاد يفارقها إلا الى ضاحية من الضواحي أو غابة من الغابات ينفق فيها النهار أو بعض النهار مع إين .

ثم أعود الى باريس آخر الصيف وقد قدمت اليه النبأ بعودتي فاذا بلغتها لم ألقه ، فاذا انتظرته لم يسع إليّ ، ولكن صاحبة الباب تصعد إليّ ذات صباح وتدفع الي قطعة من الورق ما أشك في أنها قد اقتطعت من علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات : « صديقك مريض ينتظر عيادتك » .

فأسرع إليه فأراه . وياشر ما أراه ! أرى صاحبي مريضاً لا تظهر عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الإيمان بأنه مريض ، لا يشكو شيئاً ، ولكنه واثق كل الثقة بأنه مريض . قد عرض على الأطباء فلم ينكروا من صحته شيئاً ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض و بأن الأطباء مخطئون . ولا أكاد أتحدث إليه وأتبسط معه في الحديث حتى أستيقن أنا أيضاً أنه مريض وأن مرضه أخطر جداً مما يظن ومما كنت أقدر ؛ فقد انتهى إلى الجنون الذي كان يخشاه أو إلى شيء قريب جداً من هذا الجنون .

كان يتحدث إلى في أمر السربون أو في أمر الإين فيستقيم الحديث استقامة حسنة، ولكنه لا يكاد يسمع في الجوازيز الطيارة — وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطائرات في باريس — حتى ينهض بل يثب ويهم بالخروج . فإذا سأله ما خطبه ؟ أجاب : ألسنت تسمع أزيز هذه الطيارة فإنه دعاء لي إلى الخروج .

وكان قد استقر في نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقته وبغضه والكيد له . وكان يشتري منها أكثر ما يستطيع شراءه ، وينفق في قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذي تكيده له ، وهذا المكر الخبيث الذي تمكره به . ولم يكن يلقي في ذلك كبير جهد ؛ فقد كان هو ألمانيا، وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجهاً إليه ومنصباً عليه انصباباً . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفاءه لباريس وإقامته فيها حين تفرق عنها الناس . ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق !

ثم يعظم الأمر قليلاً قليلاً ، وإذا الحلفاء جميعاً يُمكرون به ويكيدون له ويدبرون له السوء . ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألمانيا ! وأصبح ذات يوم مرتاعاً حقاً ؛ فقد جاءه النبأ — ولست أدري كيف جاءه ولا من أين جاءه — بأن الحلفاء يأترون به لينفوه إلى المغرب الأقصى . وهو ينبئني بأنه قد جد في السعى لصرف الحلفاء عن هذا الإنم العظيم والظلم القبيح ، فكتب إلى جماعة من أساتذته في السربون وإلى جماعة من كبار الساسة في مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة . وهو ينتظر ردهم عليه ؛ ولكنه ضيق بباريس هذه الخائنة الماكرة التي لا تعرف جميلاً ، ولا ترعى حقاً ، ولا تحفظ ود الصديق ، والتي هي في حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه الفتاة الخائنة التي كانت تسمى إلين والتي قد جحدت حقه ونسيت مودته وأعرضت عن حبه إعراضاً ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر به مع الماكرين . وهو يلح على في أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه في مدينة أخرى أقل خيانة وغدراً من هذه المدينة الخائنة الغادرة التي يسكنها الخونة الغادرون . والطبيب الذي يعود لا يرى بأساً بأن يفارق باريس ويقم في مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هي إلا أن يستقر صاحبي في أحد الفنادق غير بعيد من باريس في طرف غابة من الغابات . ومن هذا الفندق تصدر رسائله التي لا تنقضي إلى أساتذة السربون وإلى رجال وزارة الخارجية وإلى أنا . ويالها من كتب تلك التي كانت تنتهي إلى في الصباح والمساء من كل يوم ! حسبي أن أثبت منها هذا الكتاب القصير .

نوفبر في . . .

لم يبق لي أمل ولا شيء يشبه الأمل أيها الصديق؛ فقد أجمع الحلفاء أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون في ذلك مراجعة ولا شفاعة، بل هم قطعوا على الشفاعاة كل طريق، فأفسدوا عليّ حتى أساتذة السربون الذين كانوا يحبونني ويؤثرونني أشد الإيثار. فهؤلاء الأساتذة يتلقون رسائلي فلا يردون عليها، وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطي فهم لا يقرءون كتبتي إذا انتهت إليهم. والغريب أن أحدهم فلاناً... كان قد امتلأ قلبه حبّاً لي وإعجاباً بي حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت إليه ابنته. وهذه الخطبة هي التي غاظت إلين فصرقتها عني. ولست أدري من أبلغها أمر هذه الخطبة التي كانت سرّاً، إلا أن يكون هذا الصديق الماكر الذي تعرفه، فقد شربت معه ذات ليلة وتبسّطت في الحديث. فلما أصبحت انتهت إلى رسالة القطيعة من إلين.

وإلين من غير شك هي التي أفسدت عليّ قلوب الحلفاء وصورتني لهم في صورة العدو الخطر الخفيف، وهي التي زينت لهم نفبي إلى المغرب الأقصى. يا لعيرة النساء! يا لكيد النساء! يا لضعف الرجال! يا لسذاجة الرجال! وإن كانوا أساتذة في السوربون أو ساسة محنكين. لم يبق لي أمل في عفو الحلفاء. عفوهم عن ماذا؟ وهل جنيت عليهم ذنباً أو اقترفت في ذاتهم إيماً؟ لقد كنت أدافع عنهم في كل فرصة وأذود عن حقوقهم بالقلم واللسان، ولكنهم قد أجمعوا أمرهم عليّ نفبي، وأنت وحدك القادر على حمايتي ووقايتي

من هذا النفي . وماذا تريد أن أصنع في المغرب الأقصى ! أليست مصر
أولى بي ! أولست أنا أولى بمصر ! إن في مصر حميدة وإن في فرنسا إيلين ،
وجوار حميدة على بغضها لي أهون علي من جوار إيلين ؛ فان حميدة لم تؤلب
علي ، ولم تكدي لي ، وإنما تلتقت إساءتي اليها بالصبر والعفو . أما إيلين فقد
تلقت إحساني اليها بالجحود والعقوق . فلا مقام لي في هذا البلد ، ولا سبيل
إلى الرحيل الا أن تعينني عليه وأن تحمك تديره إحكاما . فعيون الحلفاء
يقظة لا تنام ، وجواسيسهم منبثة في المحطات والثغور . ولست أدري كيف
تريد أن تدبر الأمر ، ولكنني معتمد عليك في إخراجي من هذه الأرض .
وأنا مستعد للتنكر فيما شئت من الأشكال والأزياء حتى أبلغ مصر . فاذا
وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلموني حين أساءوا الظن
بي وسمعوا في وشاية الوشاة ، فمن يدري ! اعلى أعود إلى فرنسا فأتم درسي في
السربون وأقترن إلى هذه الفتاة التي أحبها حباً لا حد له ، والتي قد رضيتني
أبوها لها زوجا ، والتي كدت أسعد بزواجها لولا إيلين ، ولولا وشاية هذا
الصديق الخائن . صدقتني إن من ضعف الرأي وفساد العقل أن تطمئن إلى
هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصدقاء .

٢٢

وتحمل إلى صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا الكتاب :

سيدي

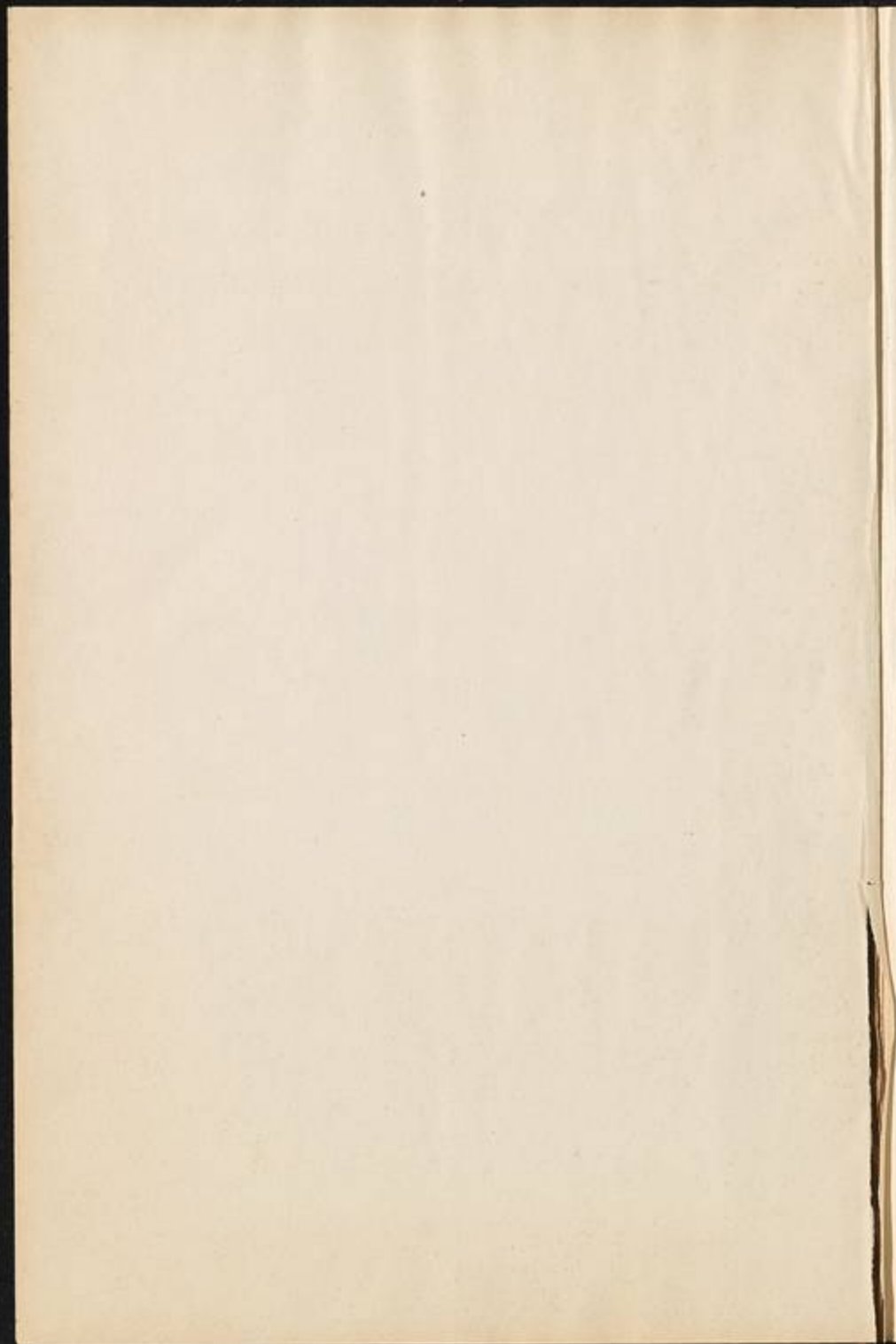
أنت تعرفني من غير شك ، فكثيراً ما حدثك عنى صديقتك . . .

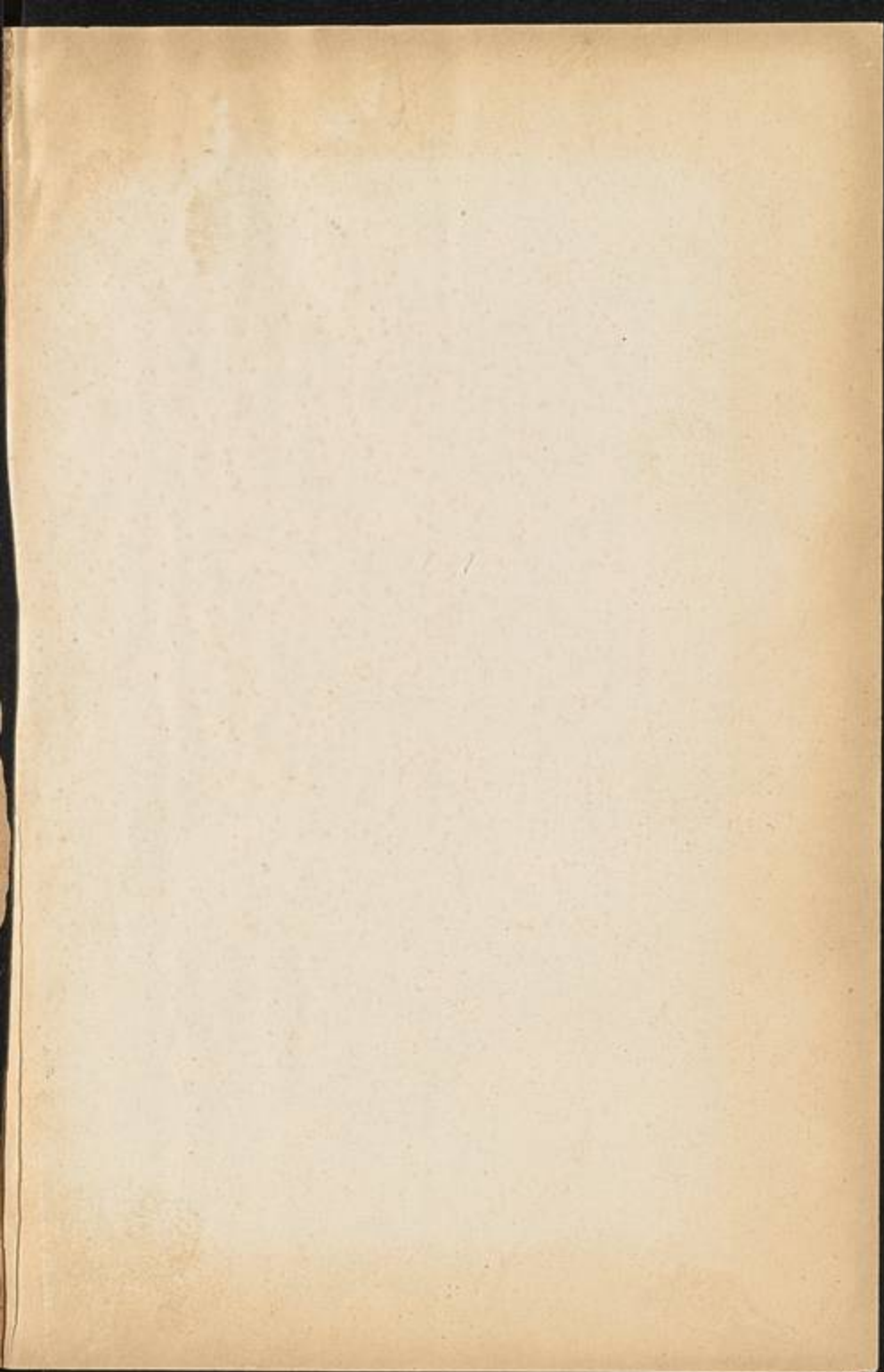
وكثيراً ما حدثني عنك، وقد صورتك لى دائماً على أنك أحب أصدقائه اليه ،
وأوفاهم له ، وأحفظهم لسره . فانا أهل إليك هذه الحقيية بعد أن احتفظت
بها عاماً كاملاً ، لا لأنى كنت أنتظر أن يعود صاحبها لى ، فقد أياسنى الأطباء
من شفائه ، بل لأنى كنت أجد الجهد كل الجهد فى فراقها ، وفى فراق
ما يتصل به من الكتب والمتاع . ولكن هذه الأعوام التى نحيهاها قد علمتنا
الإذعان للقضاء والخضوع لما ليس منه بد . فإليك هذه الحقيية ياسيدى ؛ فان
لصاحبها من أبناء وطنه أهلاً وأصدقاء هم أحق منى بما فيها وأجدر أن
يفهموه ويقدروه .

وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جداً ومتاع ليس بذى
بال ، فهذه الغرفة طوع أمرك متى شئت أقبلت فأخذت ما فيها ووجهته
حيث أحببت .

ولك ياسيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينقضى أو تهدأ
لوعته قبل زمن طويل .

وقد حفظت هذه الحقيية بضعة عشر عاماً لا أعرف من أمرها إلا أنها
مملوءة بالأوراق . فلما أتاح الظالمون لى شيئاً من فراغ ، نظرت فى هذه
الأوراق فإذا أدب رائع حزين صريح ، لا عهد للعتنا بمثله فيما يكتب أدباؤها
المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بين يديه هذا الكتاب . ولكن هل
تسمح ظروف الحياة الأدبية المصرية بإذاعة هذه الآثار يوماً ما .





39141





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0021935726

893.7H954

035

MAR 29 1971
AUG 6 1971

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58873546

893.7H954 O35

Adb.

AP